

وادى الرافدين مهد الحضارة

دراسة اجتماعيه لسكان العراق
فى فجر التاريخ

للسير ليونارد وولي

تعريب

احمد عبد الباقي





(شكل ١)

تمثيل امرأة سومرية بكامل حليها . من تنظيم مديرية الآثار العامة



مقدمة

بقلم : سيادة الدكتور ناجي الأصيل

لم يكن ليخطر ببال أحد ، قبل مائة عام ، أن يكون تاريخ الحضارات الأولى أي تاريخ بضعة آلاف من السنين مع آثار تلك الحضارات مدفوناً تحت التراب في أنقاض وبقايا المدن القديمة .

لقد انقرضت أمم تاريخية عظيمة الشأن انقراضاً تاماً ولم يبق ظاهراً من آثارها على وجه الأرض إلا بقايا قليلة . وقد أصبحت تلك البقايا مع مرور العصور رموزاً صامتة مجهولة كأنها ترمز إلى عالم مندثر غريب لاصلة له بمجرى التمدن الحديث . وليست الأطلال والتلول الأثرية إلا بمثابة المقابر من مواطن التمدن القديم . وما أكثر تلك الأطلال والتلول الأثرية في العراق فهي تمتد

من سفوح الجبال فى الشمال والشرق إلى ضفاف الوادى الفسيحة الأرجاء فى الجنوب .

قد يكون من السهل تتبع خطوات الإنسانية القديمة فى التاريخ المدون ، إلا أن استقراء التاريخ من خلال الآثار المستخرجة من بطون الأرض وتفسير الحادثات الماضية وربط شؤونها بسلسلة منطقية علمية صحيحة لم يكن فى يوم من الأيام من الأمور الهينة ، بل ربما كان ذلك من أدق وأصعب الأمور العلمية الفنية التى تتطلب التعمق فى العلم والتوسع فى الإدراك مع الشعور بالواجب نحو الإنسانية للتعبير عن الحقائق التاريخية كما يوحيه الضمير المستنير.

ولقد كان للعلماء الغربيين الفضل فى استقراء التاريخ القديم من الآثار القديمة وهى فى مواطنها ، وقد أصبح ذلك الاستقراء بفضل الجهود التى بذلت خلال المائة عام الماضية علماً مستقلا من أهم العلوم الحديثة هو علم الأركيولوجى . وقد ساهم فى تلك الجهود النبيلة كثير من العلماء الأعلام كالسير ليونارد وولى الذى تولى رئاسة البعثة الإنكلو أمريكية التى نقبت فى « أور » المدينة السومرية القديمة مدة عدة سنوات . وإنه ليسرنى جداً إقدام السيد أحمد عبدالباقى على ترجمة أبحاث السير ليونارد وولى إلى العربية لما تلقيه من ضوء على عهد إنسانى مجيد من عهود تاريخ التمدن الإنسانى فى العراق .

إن مديرية الآثار العامة العراقية باذلة كل الجهد فى سبيل الاستمرار على البحث والتنقيب فى مختلف مواطن الآثار العراقية ، وأن الأركيولوجيين العراقيين الناشئين جادون كل الجد فى استكشاف واستقراء صفحات جديدة من التاريخ القديم ليضيفوا ثمرة جهودهم العلمية إلى مجهود العلماء الآخرين لاستكمال الحلقات من تاريخ الحضارة .

إن علم الأركيولوجى لا يكتفى بما يتوصل إليه من أمور ، ولا يقف عند حد فى الاستقراء والاستنتاج ، بل يسعى دائما إلى تقصى الأخبار وتحقيقها واستجلاء الغامض من حياة الأمم التاريخية وحل المغلق من ألغاز حياتها وطلاسمها ، فالبحث عن الشعب السومرى واللغة السومرية مثلا لا يزال جاريا لمعرفة أصل هـــذا الشعب وعلاقة لغته باللغات المعروفة ، ويعمل لحل هذه المشا كل مستنداً على دراسة آثارهم وكتاباتهم وهيا كلهم ، وربط هذه الدراسة مع ما يتوصل إليه من الحقائق عن شعوب أخرى سبقت السومريين فى الزمن أو عاصرتهم فى الحياة والحكم .

ومن البديع أن ينهى السير ليونارد وولى أبحاثه القيمة فى الحضارة السومرية بالجملة الآتية : « أما تقدم السومريين من الناحية الروحية فقد كان قليلا نسبياً إذا ما قورن بالنواحى الأخرى . وكان التقدم فى هذه الناحية على أيدى قوم غرباء

عن السومريين ، ثم الساميون الذين تمت على أيديهم القوانين ، وظهر بينهم الأنبياء » .

لقد كان لظهور النبوة فى حياة الأفراد والأمم الأثر الأعظم فى توجيه الإرادة والإدراك وجهتهما الصحيحة . وإن النبأ العظيم الذى تساءل عنه الناس يوم ظهور رسالات الله بينهم لا تزال تردد صداه إنسانية اليوم كما ستبقى تردده الأجيال القادمة إلى يوم الدين ؟ .

٢٥ / ١٢ / ١٩٤٧

ناجى الأصيل

مقدمة المترجم

كتب السير ليونارد وولى Sir Leonard Woolley العالم الأثرى المشهور ، فى « موسوعة المعرفة الحديثة ـ Encyclopedia of Modern Knowledge » سلسلة مقالات عن حياة سكان وادى الرافدين الأسفل « سهل شنعار » فى فجر التاريخ ، بعنوان « وادى الرافدين مهد الحضارة ـ Mesopotamia : Cradle of Civilization »

وتمتاز هذه المقالات ، بالإضافة إلى ما فيها من مادة غزيرة ووصف دقيق ، بأسلوبها المبتكر مما يجعلها تختلف عن البحوث التاريخية التى ألفناها . فهى لا تقتصر على ذكر الملوك ومآثرهم وما حدث فى عهودهم من حروب وفتوحات وحسب ، بل إنها تتناول الموضوع بأفق أوسع من ذلك كثيراً . فتعنى بوصف حياة الناس اليومية

كما هى ، وتتناول لباسهم وأدوات زينتهم ، وأثاث بيوتهم ، وطراز مساكنهم ، ووسائل أعمالهم ، والطقوس الدينية التى مارسوها ، وغير ذلك مما نكاد أن نلمس فيه صورة واضحة لأحوال الناس وشؤون حياتهم الاعتيادية وقتذاك .

ومما يدعو إلى العجب أننا نشعر عند تلاوة هذه البحوث بأنها تكاد أن تكون صورة ناطقة لحياة سكان وادى الرافدين اليوم ، مع أنها وصف لأولئك السكان القدامى الذين مضت على وجودهم خمسة آلاف من السنين . ولا ندرى هل كانت وسائل حياة أولئك السكان راقية حقاً بحيث أنها تشبه وسائل حياتنا التى نحياها اليوم ، أم أننا جمدنا على تلك الوسائل وحرصنا على أن لا نتقدم عنها ، فكان هذا التشابه الشديد بينهما مما نلمسه بوضوح فى هذه البحوث .

ويعتبر السير وولى حجة فى هذا الموضوع ، لأنه ترأس البعثة الأثرية المشتركة التى أوفدها المتحف البريطانى بالاشتراك مع متحف جامعة بنسلفانيا للتنقيب فى أطلال « أور » المدينة السومرية فى جنوب العراق . وقد أجرت هذه البعثة تنقيباتها فى ثلاثة مواسم متعاقبة خلال السنوات (١٩٢٩ — ١٩٣٢) فعثرت على كنوز أثرية عظيمة كشفت عن معلومات ثمينة عن حياة سكان وادى الرافدين الأسفل (سهل شنعار) فى فجر التاريخ . وهو حين يبحث فى تاريخهم يكتب عن علم غزير ودراية واسعة وإلمام

كاف بالموضوع ، مستنداً على اللقى التى عثر عليها ، وأطلال المبانى التى أزاح عنها التراب .

ولعل من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الكشف عن بعض مواطن الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط يعود إلى السير وولى أيضاً . إذ أن الجهود التى بذلها والمتاعب التى تجشمها ، ساعدت على إزاحة طبقات التراب عن هذه المواطن وإظهار آثارها للناس . فقد ترأس عدة بعثات أثرية عملت فى التنقيب فى « كركميش » — جرابلس الحالية على الفرات فى سورية ، وفى « تل العمرنة » فى مصر العليا ، وفى بعض مواقع شبه جزيرة سينا . إلا أن أهم تنقيباته التى اشتهر بها هى تلك التى أشرنا إليها آنفاً ، فى « أور » مما ساعدت على كشف النقاب عن أصول الحضارة فى وادى الرافدين .

وقد دفعنى إلى تعريب هذه البحوث ووضعها بين أيدى قراء العربية ، ما لمسته فيها من وصف مسهب للمراحل الأولى من سلم الحضارة الإنسانية ، بالإضافة إلى ما فيها من إحاطة واسعة ووصف دقيق لحياة أولئك السكان فى صفحاتها المختلفة ، وهى صفحات مجيدة حقاً من تاريخ وادينا العزيز ، جديرة بالدرس والاهتمام . ولعل مما يزيد فى أهميتها أننا فى مطلع حياة جديدة ، نصبو مخلصين إلى أن تنهض بأبناء هذا الوادى الخصيب لأن يأخذوا مكانتهم إلى جانب الأمم الحية ذات التاريخ المجيد . وما أجدرنا والحالة هذه ،

بمعرفة ماضينا معرفة علمية صحيحة . وأرجو أن يكون ما قمت به من مجهود متواضع فى هذا السبيل بعض ما على من واجب نحو هذا الوطن العزيز .

ومما يسترعى الانتباه والاهتمام فى هذا البحث محاولة السير وولى فى أن يثبت قِدَمَ الحضارة فى وادى الرافدين ، وأسبقيتها على حضارة وادى النيل . إذ كان المؤرخون حتى عهد قريب يعتقدون أن حضارة مصر أقدم عهداً من حضارة العراق ، بالرغم من اعترافهم بأن هاتين الحضارتين نشأتا منفصلتين عن بعضهما بتأثير الظروف الجغرافية المتشابهة فى كل منهما .

ولعل ما توصل إليه السير وولى يتفق وما ذهب إليه المؤرخ السير أرنولد توينبى Arnold J. Toynbee من أن طبيعة الأرض الرسوبية التى ظهرت فى جنوب العراق على أثر انسحاب البحر جنوباً ، كانت عاملا محفزاً على نشوء الحضارة فى هذه البقعة قبل غيرها . إذ اضطر السكان على اقتحام هذه المنطقة الحديثة التكوين التى لم تكن سوى مستنقعات وأحراش فأعملوا فيها أيديهم متعاونين ، واستطاعوا أن يحيلوها إلى أرض صالحة للزراعة والسكنى ، فوضعوا بذلك الحجر الأساسى للحضارة الإنسانية .

وأرى من الواجب أن أشير إلى أننى التزمت جانب الدقة فى النقل ، وحرصت على أن يكون التعريب مطابقاً الأصل جهد

الطاقة . إلا أننى تصرفت بعض التصرف فى وضع العناوين فلم أتقيد بالعناوين التى وضعها المؤلف حرفياً ، لأننى رأيت بعضها بعيداً عن الموضوع فأبدلته بما رأيته يتفق والبحث . كما أننى أجريت شيئاً من التقديم والتأخير فى موضوعى الأدوات البيتية ودفن الموتى بالشكل الذى رأيته يتفق وتسلسل البحث وكذلك وضعت فى أول الكتاب خريطة لوادى الرافدين الأسفل فى فجر التاريخ ، ليستدل بها القارىء على مواقع بعض المدن القديمة التى يأتى ذكرها فى أثناء البحث . وعسى أن أكون قد أحسنت صنعاً بذلك .

وبعد ، فلا يسعنى فى ختام كلمتى هذه إلا أن أقدم خالص شكرى وامتنانى لهيئة مديرية الآثار العامة لتفضلها بتزويد الكتاب بالقسم الأعظم مما يوضحه من تصاوير ورسوم . وإننى لعاجز عن أن أوفى الدين الذى أولانى إياه سيادة مديرها العام الدكتور ناجى الأصيل بتفضله إلى جانب هذه المساعدة ، فى تقديم الكتاب . كما أعترف بفضل أولئك الذين كان لهم أكبر العون فى عملى هذا ، وأخص بالذكر منهم أستاذى الفاضل الدكتور متى عقراوى ، والإخوان السادة حسن أحمد السلمان وحسن حبشى وعبد الستار القرغولى ، لتفضلهم بمطالعة مسودة الكتاب وإبدائهم بعض التصويبات والملاحظات القيمة التى كان لها فضل إخراجه بهذا الشكل ، والله ولى العاملين ؟

بغداد فى ١٩٤٨/١/١ أحمد عبد الباقى



وادي الرافدين
في فجر التاريخ
البحر الشرقي
عيلام
سومر
سوسه
سبيار
كوث
كيش
بابل
بورسيبا
نيبور
ادب
شوروباك
اوروك
لارسه
لكش
اور
اريدو

تكوين وادي الرافدين

يطلق على وادى الرافدين اسم « مهد الجنس البشرى » مع أن الإنسان عاش وأصاب حظا من التقدم قبل أن يتكوّن هذا الوادى بعصور عديدة ، وبالرغم من أن الباحث قد يعثر على بعض الأدوات والأسلحة التى تعود إلى العصر الحجرى القديم ، فى الهضبة الصحراوية الممتدة بين حوض الفرات وغور الأردن ؛ إلا أن لهذه التسمية ما يبررها ، إذ أن هـــذا الوادى من البقاع التى يمكننا أن نتتبع فى تاريخه السحيق أصول حضارتنا الحالية .

وأرض هذا الوادى فى الواقع إنما هى هبة الرافدين . إذ كان الخليج يمتد إلى شمال موقعه الحالى بمسافة بعيدة ،

وعلى مرّ الزمن غمره الطمى الذى حملته أنهار دجلة والفرات وكارون ووادى الأرماك « البطن » الجاف حالياً . وإن عملية تكوين هذه الأرض لتلق ضوءاً على الفترة المتأخرة من تاريخ الإنسان الذى سكنها . ويظهر أن أول مرحلة فى هذه العملية ظهور سد من الطمى فى الخليج عند مصبات هذه الأنهار ، تاركاً خلفه بحيرة واسعة مالحة ، مالبثت أن عذب ماؤها بعد ذلك لكثرة مجارى المياه الشمالية التى تصب فيها . وقد أدى هـذا السد إلى بطء سير المياه فزاد فى عملية ترسب الطمى ، وتحولت البحيرة إلى سلسلة من المستنقعات مالبثت أن جفت فى ناحيتها الشمالية . كما جف القسم الجنوبى من البحيرة بفعل ترسبات الأنهار الجانبية ، فاتصل القسمان وكوّنا سهلاً واحداً . وهكذا تحوّل الخليج القديم إلى دلتا واسعة من الأرض المنبسطة الخالية تماماً من الحجارة ، قوامها الطين والغرين والرمل ، ويخترقها الرافدان اللذان لم يكفّا عن تغيير مجريهما لانخفاض شواطئهما .

ومع أن هذه الدلتا كثيرة المستنقعات ومهددة بالفيضانات الدورية ، فإن تعرّض تربتها الخفيفة (الرخوة) لشمس الصيف يحولها إلى صحراء مجدبة ، إلا أنها لو أجيد تنظيم ريها وتصريف مياهها لأصبحت من أخصب بقاع العالم . وقد وجد النخيل

فى القسم الجنوبى من هـذه الدلتا منذ تـكوينها ، كما كان الشعير قوام غذاء السكان . وقد اعتمدوا على القصب فى بناء مساكنهم . أما الكروم والتين وشتى أنواع الخضروات فلم تـكن تتطلب من جهود لـكى تؤتى ثمرتها سوى أن تلقى بذورها وحسب . وإذا كانت ثمة أرض تغرى الإنسان على سكناها فهى أرض هذا الوادى .

السكان القدماء والأمة السومرية

وقد لبّى هذه الدعوة عنصران هما الساميون (بقسميهم الشمالى والجنوبى) والإيرانيون . أما الساميون الجنوبيون فقد انتشروا فى الجزيرة العربية وصحراء الشام الجنوبية ، ثم انحدرت إلى هذه البقعة بعض الجماعات المنعزلة منهم ، عندما تكوّن السد الذى أشرنا إليه ، عند مصبات الأنهار ، وجفّت أطراف المستنقعات وأصبحت الأرض ملائمة للسكنى . وأما الساميون الشماليون — وهم عنصر متميّز نوعاً ما — فكانوا أكثر استقراراً وأشد تماسكا من سامي الجنوب ، فاستقروا على ضفاف الفرات الأعلى حتى إذا ما اتسعت الدلتا الشمالية وأصبحت صالحة للزراعة انحدروا إليها واستولوا على الشطر الأعلى من الوادى .

على أن السكان الجدد الذين استوطنوا الجزء الجنوبى من الوادى، وقسما كبيراً من سكان الجزء الشمالى منه ، كانوا من عنصر يختلف تماماً عن الساميين . فهم يمثلون الجناح الغربى لمنطقة ثقافية عظيمة امتدت فى العصر الحجرى الأخير عبر قارة آسية ، ونرى آثارها فى بلاد فارس وبلوجستان ، بل وفى أطراف منغوليا أيضا . ومن المرجح أن مايعرف فى التاريخ باللغة السومرية إنما هو لغتهم الخاصة ، وهى لغة تشترك واللغة التركية القديمة فى أصل واحد. ولا نكر ان فى أنهم من عنصر آسيوى ، وأحسن مانطلقه عليهم اسم الإيرانيين .

إن الحفريات التى أجريت فى (تل العبيد) بالقرب من أور لتعطينا لمحة عن أحد الأقوام الأولين الذين استوطنوا القسم الجنوبى من دلتا الرافدين . فقد وجدت آثار قرية مشيدة على تل من الطين يعلو قليلا عن مستوى الفيضان ، وبيوتها من القصب المطلى بالطين ولها سقوف مستوية . وتشبه طريقة صنع هذه البيوت ما نلاحظه عند سكان المنطقة نفسها اليوم (إذ أنهم يشدون حزماً من القصب ويقيمونها بعد أن يربطوا رؤوسها فتصبح بشكل أقواس ، ثم يغطونها بطبقة سميكة من الطين) . وكان لهذه الأكواخ أبواب خشبية تدور عضادتها على قاعدة من الحجارة التى كانت تستورد من الخارج . وتشغل المواقد حفراً فى أواسط البيوت ، أو تبنى من اللبن أحياناً .

وكان هؤلاء السكان يعنون بتربية الأبقار والأغنام والخنازير ، ولم يكونوا يعرفون الحصان . وكانوا يزرعون الشعير ويطحنونه برحى بدائية ليعملوا منه هريساً . وقد عرفوا النحاس غير أنهم اقتصروا فى استعماله على صنع بعض الأدوات الكمالية فقط . أما السكاكين الصغيرة ونصول المناشير ورؤوس السهام وغيرها من الآلات القاطعة ، فقد صنعوها من شظايا الصوان الذى كان يؤتى به من الهضبة الصحراوية ، أو من شظايا الزجاج الذى كانوا يستوردونه من بلاد القفقاس . ولندرة المعادن عندهم فقد اتخذوا المناجل من الطين المفخور لحصد الشعير . ولسهولة انكسار هذه المناجل وسرعة تلفها ، فإننا نجد اليوم مئات من بقاياها فى أطلال المدن القديمة . وكانوا يصنعون المثاقب وصنارات الصيد من العظام أما الفؤوس فقد كانت تعمل من النحاس أو الحجارة المصقولة ، كما كانت هذه الحجارة تستعمل فى صنع أوانى الطعام أيضا .

على أن أهم مايلفت النظر من مخلفات هؤلاء الإيرانيين القدامى ، إنما هى تلك الأدوات الفخارية التى كانوا يصنعونها بأيديهم بأشكال فنية بالغة الإتقان والروعة ، لعدم معرفتهم استخدام العجلة فى صنعها وصقلها . فكان سمكها رقيقا حتى ليكاد أن يكون بعضها بسمك قشرة البيضة . وكانت أشكالها منتظمة ، وهى مزينة بمختلف الرسوم وملونة بالأسود والأحمر — وكانا يستخرجان

من مزج بعض المواد البسيطة — مما يجعلها فريدة فى نوعها ، حتى إن ما وجد فى وادى الرافدين من فخار العهود التى تلت ذلك لا يجاريها فى دقة صنعها وحسن تلوينها . وإن مقارنة هذه الأدوات بما وجد من فخار من صنع أيد غير إيرانية ، يساعدنا ولاشك ، على معرفة شىء غير يسير عن العلاقات الثقافية التى كانت تربط أصحابها .



(شكل ٢)

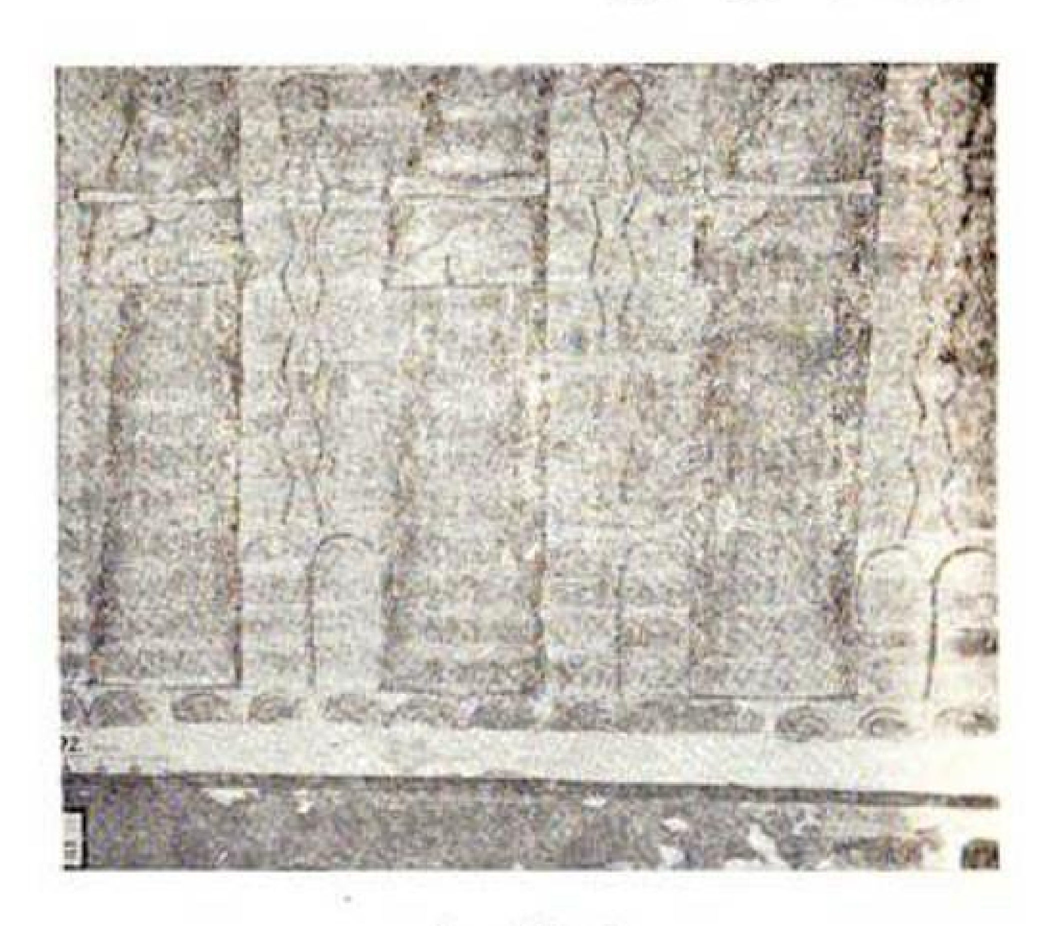
أدوات فخارية ملونة عثر عليها فى « تل العبيد » وهى تعود إلى عهد ما قبل التاريخ وبالرغم من عدم استخدام العجلة فى صنعها فإنها تمتاز بتناسقها ودقتها .

وكان هؤلاء القرويون يقطعون الأهوار فى قوارب طويلة مدببة الأطراف ، ويستخدمون الشباك لصيد الأسماك . ويلبسون

ثيابا مصنوعة من جلود الأغنام ، أو من الصوف المنسوج نسجاً ابتدائياً . وهناك من الظواهر ما يجعلنا نرجح أنهم كانوا يشمون أجسامهم ، كما كانوا يثقبون آذانهم ليضعوا فيها أقراطا من الحجارة أو القار أو الطين المفخور . أما نساؤهم فيلبسن القلائد الكبيرة من الزجاج والأصداف أو العقيق الأحمر ، ويعقصن شعورهن إلى الخلف بشكل كرة . وكانوا يلقون الميت فى قبره على أحد جانبيه ويجمعون ركبتيه إلى صدره ، بدعوى أن الإنسان يأتى إلى الدنيا بهذا الشكل وعليه أن يغادرها على هذا النحو أيضا . وكانوا يعتقدون أن الموت عبارة عن انتقال إلى عالم آخر ، لذلك تراهم يضعون إلى جانب الميت أوانى الأطعمة ووسائل الزينة الشخصية وغيرها من الأدوات البسيطة التى يحتاج إليها الفرد فى حياته الاعتيادية وذلك مما يدلنا على اعتقادهم بعودة الروح إلى الجسم ، وحينئذ يحتاج الميت إلى ما وضع بجانبه .

وجاء الفيضان الأكبر فغمر وادى الفرات الأسفل ، وأتى على القرى ولم يسلم منه سوى المدن المشيدة على التلول المرتفعة . أما الذين نجوا من السكان فكانوا شرذمة ضئيلة ضعيفة المعنوية . واكتسحت الدلتا الخصيبة القليلة السكان على أثر ذلك موجات من الغزاة من الشمال والشمال الغربى ، تتألف من الشعوب الأرمينية التى كانت تسكن جبال آسية الصغرى ، وموجات سامية انحدرت من ضفاف أعالى الفرات . وقد جاءت هذه الموجات إلى البلاد بدم جديد وفنون جديدة ، لأنهم كانوا يعرفون المعادن ويتفننون فى نحت

الحجارة ، ولما كان كثير من مميزات الحضارة الأولى لا يزال ماثلا ـ وخاصة فى الناحية المعمارية ـ فقد كان امتزاج هذه العناصر الثلاثة يعنى نشوء حضارة جديدة . والواقع أن هذه العناصر قد امتزجت ببعضها ، حتى أننا نلاحظ لأول مرة فى هذه الفترة أن الفن الذى نطلق عليه بحق اسم « الفنّ السومرى » ما هو إلا نتاج العنصر السومرى المولد من امتزاج هذه العناصر .



(شكل ٣)

• أعمدة تعلوها تماثيل للإله اوروك من الطين المفخور تعود إلى القرن الخامس عشر ق . م .

إن أبرز مثال على ما استطاع أن يعمله السكان فى دور الامتزاج هذا ، هو ما نراه فى بقايا القصر الذى عثر عليه فى أطلال مدينة أوروك « الوركاء » القديمة . إذا أن تشييد قاعة كبيرة يقوم سقفها على صفوف من الأعمدة الضخمة التى يزيد قطر الواحد منها على ثمانية أقدام ، فى عهد يعود إلى مالا يقل عن سنة ٤٠٠٠ ق . م أمر يدعو إلى الإعجاب حقاً . وإذا ما تركنا نخامة البناء جانباً ، فإننا لا نستطيع إلا أن نشير إلى الجدران والأعمدة المزينة بالفسيفساء ، الأمر الذى يحملنا على الاعتراف بظهور روح جديدة من الإبداع فى عالم الفن .

ومن الطبيعى أن هذا التقدم لم يكن على درجة واحدة فى بلاد غير منظمة ، ومجزأة إلى «حكومات مدن ـ City States» مستقلة عن بعضها . ففى القسم الشمالى يكثر العنصر السامى الذى يسكن قريباً من موطنه الأصلى ، بينما نرى العنصر الإيرانى القديم بارزاً فى الجنوب . ولهذا فقد كانت هناك مدارس محلية للفن تختلف باختلاف العنصر المتغلب من سكانها . وكان لابد لهذه المدارس من مؤثر خارجى يفرض عليها التوحيد . وقد تمّ ذلك على يد موجة جديدة من الغزاة جاءت من الشرق فقضت على الاستقلال المحلى للمدن ، وأخضعت كل وادى الرافدين إلى حكم ملك واحد . وبالرغم من أن الوافدين الجدد لم يضيفوا إلا شيئاً يسيراً إلى حضارة البلاد التى حكموها ، فإنهم أفادوها كثيراً فى توحيد الحركة الفنية فيها . إذا أنهم بتوحيدهم البلاد سياسياً ساعدوا على توحيد شعور السكان ، فنشأ من العنصر السومرى أمة سومرية .

أُورولــــك وأُور

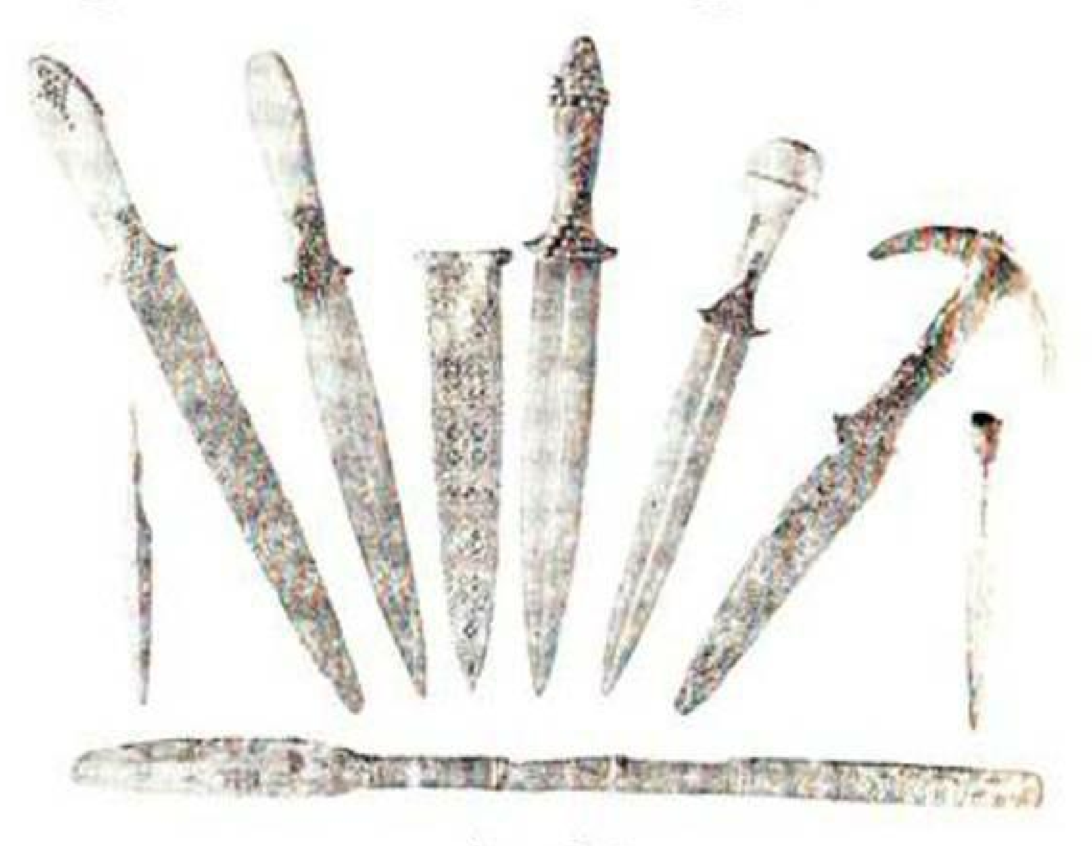
مضت قرون عديدة على تلك الأيام التي عاش فيها سكان الأهوار القدامى يغالبون الكوارث المتتالية التي كانت تنزل بهم وتحول دون تقدم الفن . إلا أن الفن استطاع مع ذلك أن يستمر فى تقدمه وإن كان هذا التقدم بطيئاً يكاد أن يكون غير ملموس . فقد وجد فى أطلال أوروك أيضاً مجموعة من الأوانى الحجرية ، ويظهر أنها من بقايا أحد المعابد التى يعود تاريخها إلى نهاية فترة الاستيلاء الأجنبى التى أشرنا إليها فى نهاية البحث السابق .

وقد بلغ قسم من هذه الأوانى الذروة فى دقة صنعه ، إذ أن بعضها على هيئة حيوانات صغيرة ، وبعضها مزين بتهاويل (تماثيل



(شكل ٤)
أبريق فخارى من أوروك وتبدو فيه دقة النحت

..غيرة) ، كما أن البعض منها مطعم بالصدف والفسيفساء . والواقع أن هذه المخلفات فريدة فى نوعها بين آثار الفن القديم . وقد أينعت ثمرة هذا الفن عندما ظهر الشعب السومرى المستقل بعد أن غُلب الغزاة على أمرهم ، وتولت عائلة سومرية وطنية حكم البلاد بأجمعها .
ومما عثر عليه فى أشنوناك « تل أسمر » مجموعة فريدة من التماثيل الحجرية ، مدفونة تحت أرض أحد المعابد ، وقد صنعت بمهارة فائقة . وهى تمثل نماذج مختلفة من سكان المدينة ، وتمتاز بطابع



(شكل ٥)
مجموعة من الخناجر الذهبية تعود إلى ما قبل ٥٠٠٠ سنة

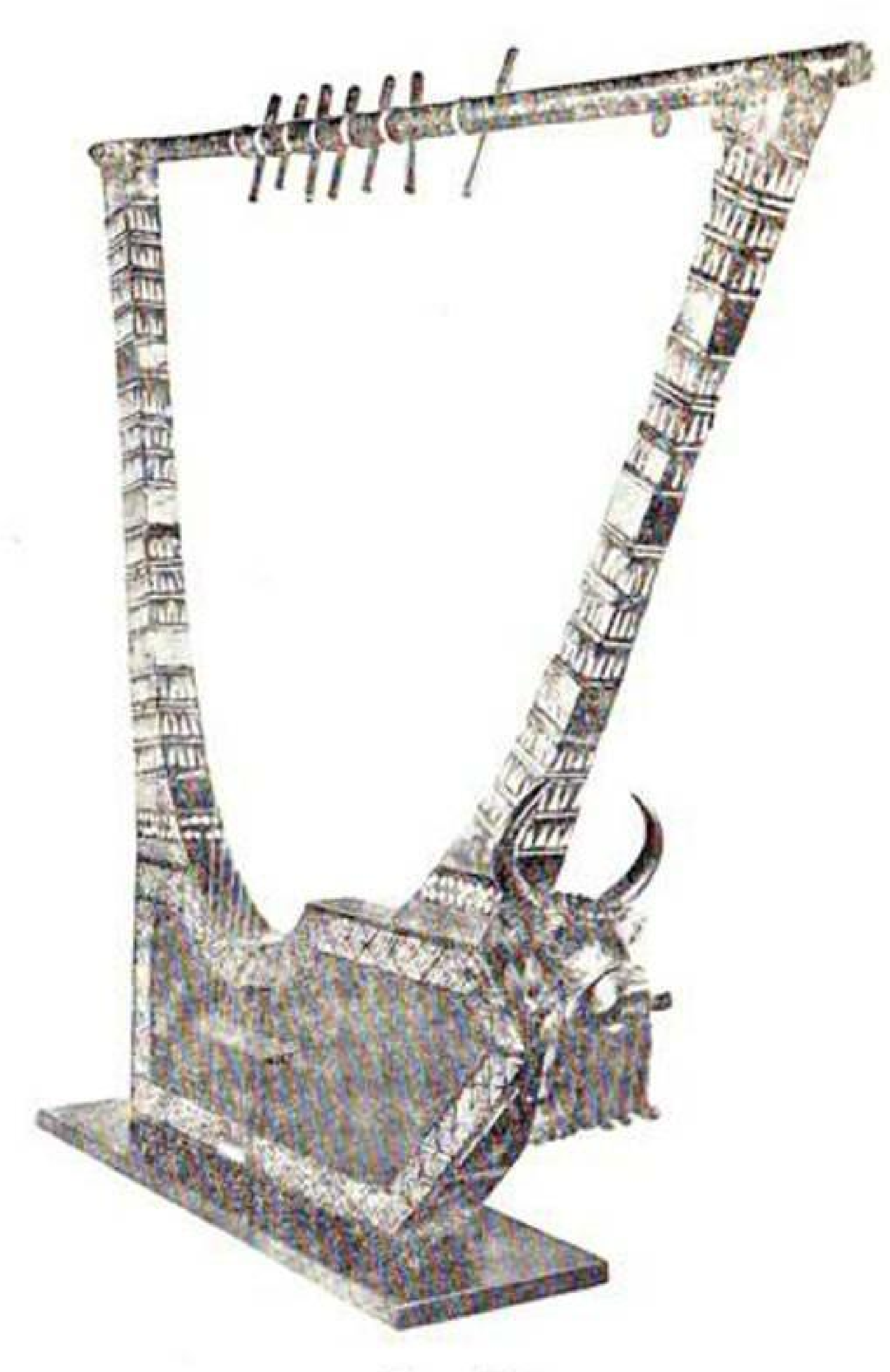
خاص . ولا تقل فى نفاسة صنعها عما وصل إليه من النحت فى عهد «كوداآ» .

ولدينا اليوم نموذج قديم لهذا النحت ، وهو بعض ما عثر عليه من التماثيل فى آشور . ويلاحظ فيها أن الجسم ضخم كالعادة ، ومغطى بكساء يشبه جلد الماشية من غير تفصيل أو تنظيم . إلا أن الوجه ملىء بالحيوية وقوة الشخصية . وعلى الرغم من أن النزعة الطبيعية فى الفن لم تظهر كاملة بأجلى صورها إلا فيما بعد ، فإن الفن فى هذا العصر كانت له مميزات معينة أصابها شىء من التحوير فى العصور التالية .

على أننا لا نكتفى فى الحكم على العصر الأول الزاهر للاستقلال السومرى بما عثرنا عليه من التماثيل الحجرية فقط ، بل إن المقابر التى اكتشفت فى أور قد ألقت ضوءاً كبيراً على ما أنتجه فنانو ذلك العصر وصُنّاعه . فإن المقابر الملكية ، حيث سجيت أجساد الملوك والملكات فى أقبية وسراديب فيها ، كانت مشيدة بالحجارة . وقد ساعدت طقوس دفن الموتى على حفظ كنوز لا يمكن مقارنتها إلا بما عثر عليه فى مصر وميكانى[1] . فقد كان يصحب جدث الملك السومرى فى تلك الأيام إلى قبره

---

(١) ميكانى Mycenea ، من أولى المدن الإغريقية التى تأثرت بالحضارة الإيجية وتقع فى سهل - أرا كوس - جنوب اليونان .

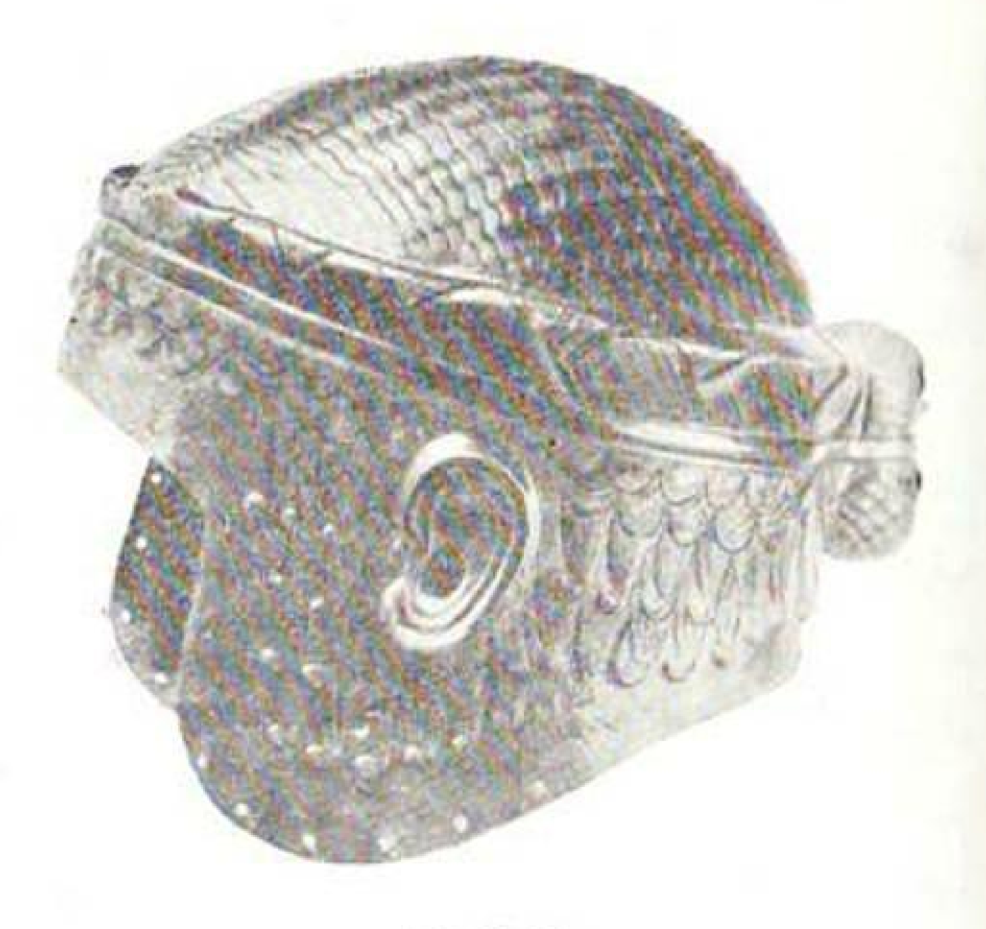


(شكل ٦)

• قيثارة من الخشب المزين بالفسيفساء يزينها رأس ثور من الذهب عثر عليها فى إحدى مقابر أور الملكية

جميع أفراد حاشيته من الزوجات والضباط والجنود والخدم والموسيقيين ، وينزلون فى الحفرة التى أعدت لتكون قبر الملك ، ثم يتناولون جرعة من السم بعد مراسيم معينة فيموتون ويوارون التراب . وقد وجد فى أحد هذه القبور ، إلى جانب الضحايا البشرية التى يفتخر بها ، آنية من الذهب والفضة ، وأسلحة ذهبية ، وعدد من القيثارات والمزامير المطعمة بالمعادن الثمينة والفسيفساء . ولوحة للعب النرد ، وبعض أدوات الزينة ، وتماثيل صغيرة لبعض الحيوانات وكلها مطعمة بالذهب والأحجار الكريمة كالزمرد وغيره . وليست هذه الكنوز الثمينة من الذهب والفضة والبرونز والأصداف التى تعود إلى ما قبل خمسة وثلاثين قرنا قبل الميلاد دليلا على ثروة ذلك العصر ورفاهه فقط ، بل إن تلك المقابر القديمة لدليل أيضا على أن الحضارة قد ازدهرت فى وادى الفرات قبل ازدهارها على ضفاف النيل .

وبينما يعتبر المصريون تأسيس الأسرة الملكية الأولى التى بدأت بما نسميه بدور الحضارة المصرية (فى سنة ٣٤٠٠ ق . م تقريباً) مبدأ تاريخهم ، فإن مقابر أور المعاصرة لهذا التاريخ تمثل خاتمة دور يقدر المؤرخون السومريون أنه يبدأ بالطوفان ويمتد ألوفا من السنين . وأن مادونه هؤلاء المؤرخون على غموضه ، والذى لا يعدو أن يكون ثبتا بأسماء جماعة من الملوك الذين لم يسدل



(شـكل ٧)
الخوذة الذهبية التى عثر عليها فى المقبرة الملكية فى أور
وهى من فرائد فن الصياغة السومرية

النسيان عليهم أستاره ، لجدير بأن يعتبر على شىء من الصحة . لأن المهارة الفنية التى نلمسها فى صناعة الخنجر الذهبى الذى وجد فى أور مثلا ، تحملنا على الاعتراف بأنه قد مرت قرون عديدة قبل ذلك العهد ، من العمل وبذل الجهود فى مضمار الحضارة .

إن المخلفات التى عثر عليها فى المقابر الملكية فى أور سومرية

خالصة فى طرازها ، كما أن الحفريات التى أجريت فى (تل أسمر) بالقرب من بغداد ، وفى (مارى) فى الشمال الغربى عند الحدود السورية تظهر لنا أن الثقافة السومرية قد سادت جميع أرجاء ما بين النهرين . إلا أنه بالرغم من تجانس الثقافة فإن عناصر السكان لم تكن قد امتزجت بعد ، وكان الزمن يعمل على تمايزها بدلا من تقليل الفروق بينها . فقد كان وادى الرافدين عند مطلع العصور التاريخية يقسم إلى قسمين : « القسم الشمالى » ويسود فيه الساميون ، وهم قوم حربيون اعتدائيون يتطلعون بطمع نحو القسم الجنوبى من الوادى ، كما كانوا على احتكاك دائم بسكان جبال آسية الصغرى وأعالى الفرات فى الشمال والغرب . ثم « القسم الجنوبى » وفيه خليط من السكان يسودهم السومريون الذين كانوا أعرق فى الحضارة وأكثر تقدما ، والذين أخذوا بمرور الزمن وبتأثير مناخ الدلتا الذى لم يألفوه ، يفقدون نشاطهم وفاعليتهم ، ويمتزجون بالعنصر السامى ، أو يتلاشون تاركين مكانتهم لهذا العنصر . وبوسعنا أن نعزو كثيرا من توجيه تاريخ البلاد إلى هذا الانقسام العنصرى .

ولا يقتصر ما لدينا من آثار الحقبة الأخيرة من هذه الفترة على كوخ فلاح ما قبل التاريخ ، بل لدينا إلى جانب ذلك قصر ملكى ومعبد إحدى الآلهة . ويعتبر القصر الذى اكتشفت بقاياه



(شكل ٨)

منظر أمامى للقيثارة المنشورة فى ص : ٢٩

فى « كيش » بالقرب من بابل ، أقدم عهداً من المعبد ، وإن كنا لا نستطيع أن نعين تاريخه بصورة مضبوطة ، إلا أن المعبد كان قد شيده « آنى بادا » ملك أور حوالى سنة ٣١٠٠ ق . م تقريبا . ويعتبر مؤرخو بلجل مدينة « كيش » أقدم المدن الملكية الكبيرة و « أور » ثالثتها ، من حيث تسلسلها التاريخى . وهذا التغيير فى العواصم يعنى مراحل مختلفة مرت بها البلاد فى حياتها .

حكومات المدن

إن استيطان القسم الجنوبي من وادي الرافدين تم بصورة تدريجية بطيئة . فقد كان أول القادمين شراذم صغيرة من المغامرين اندفعت إلى تشييد أكواخها المتباعدة عن بعضها ، أو القرى الصغيرة في البقاع المتخلفة عن المستنقعات بعد جفافها ، وخاصة في الجزر المرتفعة التي تجعلها بمنجاة من خطر الفيضان . وقد اعتنى هؤلاء بمزارعهم الصغيرة التي فرضت عليهم نوعا من حياة العزلة . ومع هذا فالظاهر أن السومري كان ينزع بطبيعته دائما إلى سكنى المدن ، وما التلول التي نراها اليوم متناثرة في وادي الرافدين سوى بقايا تلك المدن المندثرة التي بدأت بشكل قرى صغيرة تكونت من تجمع السكان بعد تحسن الظروف المحيطة بهم .

إلا أن سكان هذه البقعة الحديثة التكوين كانوا متنافسين في اغتصاب الأرض ، والفرد منهم يفضل أن يزيد عدد ماشيته بمهاجمة قطيع جيرانه على أن ينتظر تلك الزيادة بالتوالد . وكانت القطعان المتكاثرة بحاجة إلى مراع جديدة ، بينما المراعي جميعها قد استحوذ عليها ، كما كان حفر جدول يعد نعمة يحسد عليها صاحبها . في مثل هذه البقعة ، ووسط هذه الظروف لم تكن الحياة آمنة ، ولا تضمن فيها سلامة الفرد إلا بالعيش وسط الجماعة ، ولذا كانت المدينة أضمن لساكنيها من القرية . وقد تبين للناس بالتجربة أن البنايات المشيدة من اللبن يجب أن تبنى فوق مستوى المياه ، ومن الأفضل أن تقام على تل صناعي . كما لاحظوا أن سداً من التراب هو خير ما يحميها من خطر الفيضان ، وأدركوا أن هذه السدود إذا ما اعتنى بها فإنها تصبح سوراً يصد الأعداء أيضا ، وبذلك تحولت البلدة إلى مدينة مسورة .

وكانت المدينة هي الوحدة السياسية ، وتعتمد على نفسها في تموينها ولها من الأراضي ما كان بقدرة سكانها الاستحواذ عليه بالإضافة إلى القرى والحقول المجاورة لها والتي يأوي أهلها إلى داخل أسوار المدينة في أوقات الشدة والضيق . وكانت أكثر الحكومات نجاحا تلك التي باستطاعتها حماية ملكية الأراضي . ولما كانت هذه سبباً في أكثر المنازعات التي تقوم بين المدن



(شكل ٩)
بعض الجرار من الفخار تعود إلى ٣٢٠٠ ق . م تقريباً
وقد عثر عليها فى كيش

المتجاورة بين آن وآخر ، فإن أبسط وسيلة للتوفيق بين هذه المصالح المتضاربة توحيد المدن . وكانت هذه السياسة أقرب ما تكون لإرضاء الحكام الطامعين الذين لم يلقوا مقاومة فى توسعهم وفرض حكمهم على المدن المختلفة ، لما يربط السكان من أواصر القربى ، وهؤلاء السكان لا يريدون عادة أكثر من ضمان حقوقهم فى التملك وترك إدارة شؤونهم الداخلية إليهم ، وهكذا لم يجد هؤلاء الحكام ما يقاوم أطماعهم فى توسيع سلطانهم .

وكان حكام مدينة « كيش » الذين قدموا غازين من الشرق ، أول من حقق الزعامة على أرجاء الوادى كافة بعد الطوفان ،

واحتفظوا بها أجيالا لا يحصى عددها ، كما تروى القصص البابلية .
ثم آلت الزعامة بعد كيش إلى عائلة سومرية خالصة اتخذت « أوروك » عاصمة لها أولا ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى « أور » .

إن بقايا القصر الملكى فى كيش يدل على درجة عالية من الترف ، فقد شيد باللبن فوق تل صناعى يرقى إليه بسلم عريض يؤدى إلى بهو رحب يقوم سقفه على أعمدة من الآجر بشكل يسمح للضوء بالنفوذ إلى الغرف الداخلية . وقد غطيت جدرانه بألواح الإردواز المزينة بالنقوش الصدفية التى تمثل صوراً من حياة الرعى أو انتصارات الملك على أعدائه وإن بقاياه اليوم تدلنا على أنه كان قصراً جديراً بسكنى أحد الملوك .

واحتفظوا بها أجيالا لا يحصى عددها ، كما تروى القصص البابلية . ثم آلت الزعامة بعد كيش إلى عائلة سومرية خالصة اتخذت « أوروك » عاصمة لها أولا ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى « أور » .

إن بقايا القصر الملكى فى كيش يدل على درجة عالية من الترف ، فقد شيد باللبن فوق تل صناعى يرقى إليه بسلم عريض يؤدى إلى بهو رحب يقوم سقفه على أعمدة من الآجر بشكل يسمح للضوء بالنفوذ إلى الغرف الداخلية . وقد غطيت جدرانه بألواح الإردواز المزينة بالنقوش الصدفية التى تمثل صوراً من حياة الرعى أو انتصارات الملك على أعدائه وإن بقاياه اليوم تدلنا على أنه كان قصراً جديراً بسكنى أحد الملوك .

SAG	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ŠU	QATU - BILTU	HAND - TRIBUTE	[illegible]
DA	IDU - ITA	ARM - BESIDE	[illegible]
DU, GIN, RA, TUM, GUB	ALAKU - NAŠABU - NAZAZU	TO GO - TO DWELL - TO STAND	[illegible]
GÙ, GUD, GÀR	ALPU - QARRADU - NAŠ'ADU	OX - STRONG, WARRIOR - TO DESTROY	[illegible]
UR, ZUR	KALBU - NAŠRU	DOG - ENEMY - HELPER - FRIEND	[illegible]
HU, P/BAG	ISSURU - EŠURA - [illegible]	SPARROW - BAD - [illegible]	[illegible]
HA, KU, LU	NÛNU - LU	FISH - VERILY	[illegible]
DUG, KURUM	KARPATU - DAMU	POT - RED WINE, BLOOD	[illegible]
APIN, URU	EPINNU - ERESU	PLOUGH - TO PLOUGH, TO PLANT	[illegible]
EN	BELUM - ŠARRU - QALU	LORD - KING - TO SAY	[illegible]
AN, DINGIR	ŠAMU - ELU - ILU - ILTU	HEAVEN - HIGH - GOD - GODDESS	[illegible]

(شكل ١٠) نشوء الخط المسماري وتطوره

فإننا نرسم طيراً يحوم فى غرفة مليئة بالأفرشة — أى أننا نرسم ألغازاً تدل على الارتباك .

ولم تتطور الكتابة البابلية إلى أحرف هجائية ، بل بقيت على أساس المقاطع الصوتية حتى الأخير . وإن بعض العلامات احتفظت بشكلها التصويرى الذى كانت تمثله فى الأصل . كما أضيفت بعض العلامات لتدل القارىء على ماهية الكلمة القادمة . فإن كلمة «شجرة» مثلا تتقدمها علامة الخشب ، وأن اسم أحد الآلهة تتقدمه علامة رمز الألوهية .

ولما كان الورق غير معروف حينذاك والصخور نادرة وصلبة لا يمكن النقش عليها بسهولة ، فقد استعاض الناس عن ذلك بلوحات من الطين الطرى يكتبون ما يريدون على الوجه الصقيل منها بأقلام مدببة ثم استبدلوا الأقلام المدببة بأخرى مثلثة الرأس ، فأصبحت الكتابة بهذا القلم أكثر ملاءمة لطبيعة الطين . ولما لم يكن باستطاعة الكاتب بهذا القلم سوى رسم خطوط مستقيمة أو علامات أسفينية فسرعان ما أدى استعماله إلى انقلاب كامل فى الكتابة . إذ فقدت العلامات التصويرية حقيقتها كلية ، وغدت مجرد علامات اصطلاحية على الناس أن يحفظوها لكى يفهموها . إلا أنهم ما لبثوا أن نسوا أصلها التصويرى . وقد انتشر استعمال هذه الكتابة على ألواح الطين والحجارة وصارت تعرف بالكتابة

الأسفينية أو المسمارية ، نسبة إلى شكل القلم الذى تكتب به .

وتعتبر لوحة كيش بالرغم من أنها بدائية ، أثراً تاريخياً بالدرجة الأولى من الأهمية ، لأنها تبرهن لنا أن سكان وادى الرافدين الأول كانوا قد خطوا إحدى الخطوات الأساسية فى مضمار الحضارة .

ونستطيع الآن أن نشرح مراحل تطور الكتابة بأمثلة واقعية . فقد وجدت فى (أوروك) لوحات طينية توازى فى قدمها تلك اللوحة الصغيرة التى عثر عليها فى كيش ، وعلاماتها لا تزال تصويرية يدل كل منها على ما يعنيه الرسم . ولذا فلم تكن هناك جمل أو قواعد للغة ، وإنما مجرد قوائم من الكلمات مع أرقام لكل عبارة ، مما يدل على أنه قد تكون نظام للأرقام أيضاً . أما اللوحات التى عثر عليها فى « جمدت نصر » بالقرب من كيش . فهى نصف مصورة ، كما يتضح ذلك من ملاحظة العمود الثانى من اللوحة المقابلة . حيث نرى أن الصور قد فقدت حقيقتها التى تدل عليها . بينما الألواح المكتوبة التى عثر عليها فى « أور » تدلنا على انتقال الكتابة إلى مرحلتها الثانية ، إذ استعيض فيها عن الخطوط المنحنية بأخرى مستقيمة . وعند اكتشاف القلم المثلث الرأس أخذت العلامات الأسفينية تحل محل الخطوط فى الكتابة . كما نرى ذلك فى الشكل المشار إليه نفسه . وبذا بلغت الكتابة المسمارية ذروة تقدمها .

معبد تل العبيد

إن معبد « آنى بادا » فى العبيد ، الذى يشبه القرية الأولى
عند نشأتها إلى حد بعيد ، يصور لنا ازدهار الحياة الدينية فقد
شيد على قاعدة مرتفعة من الآجر يوصل إليها بسلم حجرى عريض
جليت حجارته من الخارج بعد جهود شاقة . وتعلوه شرفة يقوم
سقفها على أعمدة من جذوع النخل المغطاة بالنحاس . وتقوم على
جانبى بابه تماثيل نحاسية بحجمها الطبيعى وقد ثبتت لها عيون
وأسنان من الأصداف والأحجار الكريمة . كما زين أعلى الباب
ببعض الأعمدة المزخرفة بالأصداف والفسيفساء . وفوق ذلك نقوش
نحاسية بارزة ، وتزين الجدران الخارجية صفوف من التماثيل
النحاسية ونقوش بارزة لقطعان الماشية . ورسوم أزهار حمراء



(شكل ١١)

وسوداء وبيضاء . ويعلو ذلك إفريز أسود اللون ذو إطار نحاسى ، وهو دقيق الصنع ، مطعم بالصدف وقطع المرمر ، وفوقه صفوف من الطيور ، ثم صفوف أخرى من الأبقار ، ومناظر مختلفة من الحياة البيتية . وكانت فى الداخل تماثيل عديدة منحوتة من الحجارة ، وأوان حجرية عليها كتابة تتضمن إهداءها من بعض المتدينين .

إن هذه البقايا التى استطاعت أن تخلد طوال خمسة آلاف سنة مضت تمكننا من أن نتصور درجة الثروة التى كان عليها المعبد فى أول عهده ولا يدلنا ذلك على رفاه الناس حينذاك فقط ، بل هو دليل أيضا على المهارة الفنية الفائقة التى كان عليها صناع أور ، والتى تمثلت بتلك الحضارة .

اِضطرابٌ وتقدُّم

كان العصر الذى تلا ذلك من عصور الاضطراب السياسى ، إذ كانت حكومات المدن بسلالاتها السومرية أو السامية تتعاقب فى فرض سلطانها على البلاد كافة بقوة السلاح ، أو تتنافس بقوى متكافئة تحول دون خضوع الواحدة للأخرى . إلا أنه كان مع ذلك عصر تقدم وازدهار ، فإن الجيوش التى تحقق لسيدها السيطرة فى داخل البلاد كلها ، كان يجب أن تُشغل بعد ذلك بتوجيهها نحو الفتح الخارجى . فكانت عيلام العدو القديم فى الشرق تسحق مرة بعد أخرى ويتولى مقاليد الأمور فى عاصمتها « سوسة » حاكم سومرى . وكان بوسعهم أن يتوغلوا غرباً حتى يبلغوا سورية . وهكذا كان باستطاعة ملك سومر واكَده أن يقيم نُصُبَ

انتصاراته فى ديار بكر ، وأن يغسل أقدامه فى مياه البحر المتوسط .

ولم يكن أثر هذه المغامرات مقتصراً على تفتح أذهان الناس لآراء جديدة وتوسيع آفاقهم الفكرية فحسب ، بل كان التوسع التجارى نتيجة لها ودافعاً عليها إلى حد بعيد أيضاً . فالانتصارات فى سورية تعنى السيطرة على مناجم الفضة والنحاس فى جبال طوروس والاستحواذ على غابات الأرز الغنية فى لبنان . فعندما قام « مانشتوسو — Manishtusu » ملك اكده باجتياز الخليج لمهاجمة الحلف الذى كونه اثنان وثلاثون من الملوك الصغار ضده ، كان هدفه المقالع الصخرية ومناجم الفضة فى تلول عيلام ، ولما قاد سرجون الأكدى جيوشه فى قلب آسية الصغرى إلى « كينز — Canes » فى كبادوكيا ليحمى مستعمرة لبعض التجار من أبناء وادى الرافدين الذين اتخذوها محطة لهم ، كان حريصا على أن يستصحب معه عند أوبته من حملته هذه نماذج من الأشجار الغريبة كالكروم والتين ، والأزهار ، التى قد يلائمها مناخ بلاده .

ولما كان وادى الرافدين العظيم خصيباً وتقوم ثروته العامة على زراعته ومراعيه ، فإنه بحاجة ماسة إلى استيراد الأخشاب الجيدة ومختلف أنواع المعادن وبعض المواد الكمالية كالأحجار الكريمة ، بل وحتى الصخور على اختلاف أنواعها . ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف ازدياد رفاهه إلى حد غير قليل على سيطرته على مصادر

هذه المواد الأجنبية ، وعلى الطرق التجارية المؤدية إليها .

على أن هناك نتيجة أخرى لهذه الفترة المضطربة لا تقل أهميتها عما ذكرناه ، فقد تمثلت الفوضى فى جور الطبقات العليا وفسادها ، كما تمثلت فى الضغط على الطبقات المستضعفة .

وعندما كان ينجح أحد الحكام فى فرض سلطانه على البلاد بقوة السلاح كانت أحسن وسيلة ينهجها للاحتفاظ بمركزه هى أن يكسب العطف العام بإصلاح مساوئ الماضى وإعادة سلطة القانون ، بما فى ذلك وضع شرائع جديدة تقوم على العادات والتقاليد المرعية ولذا نرى فى نهاية الفترة التى نبحث فى تاريخها أن حمورابى استطاع أن ينظم المجموعة القانونية العظيمة — التى توجد اليوم نسخة كاملة منها تقريباً فى متحف اللوفر بباريس — معتمداً على مجاميع بسيطة من القوانين التى كان قد وضعها الحكام السابقون مستهدفين إصلاح مساوئ عهدهم .

ويصف لنا « أوروكاكينا — Urukagina » ملك لكش كيف أن رجال الدين وكبار موظفى الحكومة قد اقتسموا فيما بينهم واردات الآلهة واحتجزوا لأنفسهم الأراضى الموقوفة على المعابد وما فيها من قطعان الماشية . ويبين لنا كيف أصبحت رسوم الدفن الإضافية بحيث أمكنه تخفيضها إلى أقل من خمس ما كانت عليه . ويذكر كيف كانت ممتلكات الفقراء تحت رحمة الأغنياء وأنها



(شكل ١٢)

تمثال للملك « كودآ » حاكم لكش بملابس الحكم وهو قطعة فنية رائعة تمثل رقى النحت فى عهده.

الحاجة إلى تشريع يحميها . ولذا فهو يفتخر بأنه « أقام الحرية وقوى دعائمها » فى مملكته .

وتزودنا سجلات « كودآ — Cudea » حاكم لكش الذى فقدت المدينة سيادتها بعد موته ، بأشرق صورة للرفاهية التى يمكن الحصول عليها فى زمن السلم . إذ لم يشر فيها إلى الحرب سوى مرة واحدة ، وذلك مع دولة أنشان الأجنبية « Anshan » . بينما هو يحدثنا فيها كثيراً عن مبانيه ومؤسساته الدينية . ولا يدل ما أنفقه من الثروة فى سبيل ذلك على تقواه فقط ، وإنما على ازدهار الحالة فى مملكته أيضاً . إذ أنه شجع التجارة الخارجية ، ورعى الحركة الفنية . وهناك ستة عشر تمثالا له بقيت حتى اليوم ، ويمثله أحدها على هيئة معمارى ماسكا بيده خريطة وأداة قياس ، ومن ثم رفعه أفراد شعبه الشكور إلى مرتبة الآلهة اعترافا بفضله عليهم .

أسرة أور الثالثة

إن تأسيس أسرة أور الثالثة عام ٢٤٠٠ ق . م تقريبا على يد « أورانكر – Ur-Engur » أو « أورنامو – Ur Namu » كما يقرأ اسمه الآن بصورة أدق ، أعاد جميع وادى الرافدين إلى سلطة واحدة وضمن قيام عهد من السلم والحكم العادل . على أنه كانت لا تزال هناك بعض الحروب التى تنشب على الحدود البعيدة ، بل إن قلب وادى الرافدين كان – كما هو دائماً – معرضاً للهجمات من الشرق والغرب . والواقع أن بناء الدولة الذى أسسه أورانكر قدر له أن يضمحل أمام هجمات العيلاميين الجبليين قبل أن يتكامل قرن على تأسيسه . ومع أن الحياة لم تكن مستقرة تماماً ، إلا أنه كان هناك نوع من الهدوء الذى استفادت البلاد منه فائدة عظمى .



(شكل ١٣)

الملك « أورانكور » فى حضرة الإلـه « نانار » إله القمر الجالس على عرشه ، يستأذنه فى تشييد الزيكورات ويلاحظ أن الإله يحمل الفأس وسلسلة القياس

وتتوفر للمؤرخ مواد كافية عن هذه الفترة تساعده على دراسة حياة الناس خلالها بصورة مفصلة ، وإن المعلومات المسجلة لم تكن متسلسلة فحسب ، بل إن الحفريات التى أجرتها فى « أور » البعثة المشتركة من المتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانيا ، قد كشفت عن كثير من مبانى العاصمة ومعالمها ، وأعطتنا فكرة عن أوضاع الحياة حينذاك .

فقد كان الملك رأس الدولة ، وكانت النظرية التى تقوم عليها حكومة المدينة القديمة ، هى أن الإله — إله المدينة الخاص وحاميها — هو الملك الحقيقى ، وأن الشخص الذى يدعى بالملك أو الحاكم ما هو إلا وكيله فى ذلك . ولم ينس الناس أبداً هذه النظرية ، مما أدى إلى نشوء بعض المصاعب عند ما كانت تفقد إحدى حكومات المدن استقلالها ، فإذا ما تغلب رجال مدينة « أومّا — Umma » على أهل مدينة « لـكَش — Lagash » مثلا ، فإن ذلك يعنى انتصار « نيسابا - Nisaba » إلهة أومـا على نِنْـكرسو — Ningirsu إله لـكَش ، وحينئذ تعتبر ثورة لـكَش على أومـا واجباً دينياً .

إلا أنه عند ما تيسر لبابل أن تحتفظ بسيادتها على البلاد مدة طويلة استطاعت أن تفتئت على الأساطير الدينية التى كانت شائعة فى أنحاء البلاد كافة ، لـكى تسبغ الصفة الشرعية على ادعاء إلهها

« مردوك — Marduk » السيادة على كل آلهة البلاد ، وبذلك قلت من أهمية عامل كبير من عوامل التبرم . على أن ذلك لم يكن مستطاعاً فى عهد الأسر الأولى التى حكمت مدة قصيرة وانقرضت ، فابتكرت وسيلة أخرى أكثر بساطة هى تأليه الملك ، فيصبح باستطاعة كل مدينة خاضعة له أن توحد طقوس عبادتها التقليدية مع التقاليد عبادة هذا الإله الجديد المشترك للبلاد كلها ، والذى يصبح ابناً أو زوجاً لكل إله محلى خاص . ومن ثمَّ فإننا نرى على أنه إذا كان الإله الأكبر ملكاً ، فإن الملك الصغير قد غدا إلهاً أيضاً .

الأحوال الاجتماعية

كان المجتمع ينقسم بعد الملك ، إلى ثلاث طبقات ؛ الأولى « العاميلو Amelum » أو الأحرار وهى تضم رجال الدين وموظفى الحكومة . والثانية طبقة « المسكينو — Muskinum » وهم من الأحرار إلا أنهم أحط رتبة من العاميلو ، وهى تضم أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة . أما الثالثة فهى طبقة العبيد « Wardum » وهى أحط الطبقات منزلة . وكان التمايز بين هذه الطبقات واضحاً جداً ؛ فمثلا عند حدوث اعتداء ما تلاحظ الطبقة التى ينتمى إليها المعتدى عليه ، فإذ كان من طبقة العاميلو كانت العقوبة على أساس العين بالعين والسن بالسن ، أما إذا كان من طبقة المسكينو فيكتفى بالغرامة ، ولـكن الأمر بالعكس إذا ما كان المعتدى من

العاميلو ، فإنه يعاقب بقساوة أشد مما لو كان من الطبقة الوسطى . وكان الطبيب يستوفى من أبناء الطبقة الأولى ضعف ما يستوفيه من أبناء المسكينو ، وخمسة أمثال ما يستوفيه من العبيد .

وكان الحر من طبقة الموظفين يتمتع بامتيازات عديدة وعليه واجبات فى مختلف مناحى الحياة ، تميزه عن غيره من أبناء طبقته ، ويظهر أن الأساس الذى يقوم عليه هذا التمييز هو مقام الوظيفة التى يشغلها . وإذا ما كان الأمر كذلك فلابد وأن هذه الفروق بين الموظفين وغيرهم كانت قد نمت ببطء بمرور الزمن ونمو تقاليد الحكم غير أنها كانت أقل تقدماً على عهد أسرة أور الثالثة عنها فى عهد حمورابى .

على أن الفرق بين الأحرار من كلتا الطبقتين وبين العبيد كان أساسياً ويعود إلى عهد قديم . إذ بالرغم مما يتمتع به العبد من بعض الحقوق والضمانات فإن ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لما للطبقات العليا من الحقوق إزاءه . ففى استطاعته أن يملك أرضاً وممتلكات أخرى ويؤدى الشهادة أمام المحاكم ، وأن يشترى أو يسترد حريته ، وأن يحتج قانونياً على بيعه . كما كانت هذه الحقوق مما يسهل له أمر زواجه من امرأة من الأحرار . على أنه إلى جانب هذه الحقوق كان العبد بضاعة مطلقة لسيده سواء كان مأسوراً بحرب أو مشترى أو مولوداً فى العبودية . وهو يوسم

عادة ويرتدى ملابس تميزه عن غيره . وإذا ما اعتدى عليه أحد أبناء طبقته فإن ديته تدفع لسيده . وفى وسع الحر أن يستعبد زوجة العبد أو ابنه إذا كان له دين عليه . كما كان إيواء العبد الآبق يعتبر جريمة كبرى . ومن المرجح أن العبودية البابلية كان فيها شيء كثير من الرحمة مما قلل الفروق الاجتماعية بين الأحرار والعبيد ، ولذا لم تقم ثمة محاولة لإضعاف هذه الفروق .

القانون والحكومة

كان شكل الحكومة فى جوهره فردياً مستمداً من الملك الذى مع اختياره العدد اللازم من الموظفين ، يعتبر مصدر السلطتين التشريعية والقضائية معاً . وكان قانون الأراضى عرفياً فى أكثره إلا أن القانون العام كله يقوم على سوابق صدرت بمراسيم ملكية ، ينفذها القضاة المحليون ورجال الدين .

وكانت الإمارة — التى تحولت إلى الملكية فيما بعد — فى أوائل عهد حكومات المدن وراثية محصورة فى أقوى عائلة فى المدينة ، ونرجح أنها بقيت كذلك حتى فى عهد حكم « أور » المركزى . وكانت السلطة العليا تحاول جهدها التقليل من تدخلها

فى التقاليد المحلية ، وإنما تؤثر الاستفادة من نظام الحكم القائم ، ويعتبر الحاكم • Ishakku • مسئولا عن الإدارة العامة فى منطقته ، وعليه أن يراقب ملتزمى جباية الضرائب ، وأن يرسل إلى العاصمة حصة الملك منها ، وهو يهيمن على الشئون القضائية ويذيع الأوامر الملكية ، ويبعث إلى الملك بالأمور القضائية المستأنفة ، وينفذ أوامره الخاصة .

ويعتبر تأسيس المعبد أو تعميره من أعمال الملك دائماً ، بالرغم من أن نفقات ذلك قد تؤخذ من واردات الآلهة ، فيبصم اسم الملك ولقبه مع اسم المعبد على قسم من الآجر المستعمل فى البناء . وتوضع تحت أسس البناء صناديق مصنوعة من الآجر والقار يحتوى كل منها على صورة نحاسية للملك وهو على هيئة خادم للمعبد يحمل على رأسه سلة من الملاط . كما توضع قطعة من الصخر منحوتة بشكل طابوقة وقد كتب عليها ما ينص على إهداء المعبد للآلهة .

وهناك واجب آخر مهم كان يضطلع به الملك فى العهد القديم كأية حكومة حديثة فى وادى الرافدين ، هو المحافظة على نظام الرى وتوسيعه ، إذ أن رفاهية البلاد الزراعية تتوقف على تنظيم مياهها . ولذا كان فتح قنال جديد أو تنظيف مجرى قديم يعتبر من الخدمات العامة التى تستحق التسجيل . وهكذا نرى « أورانكور »

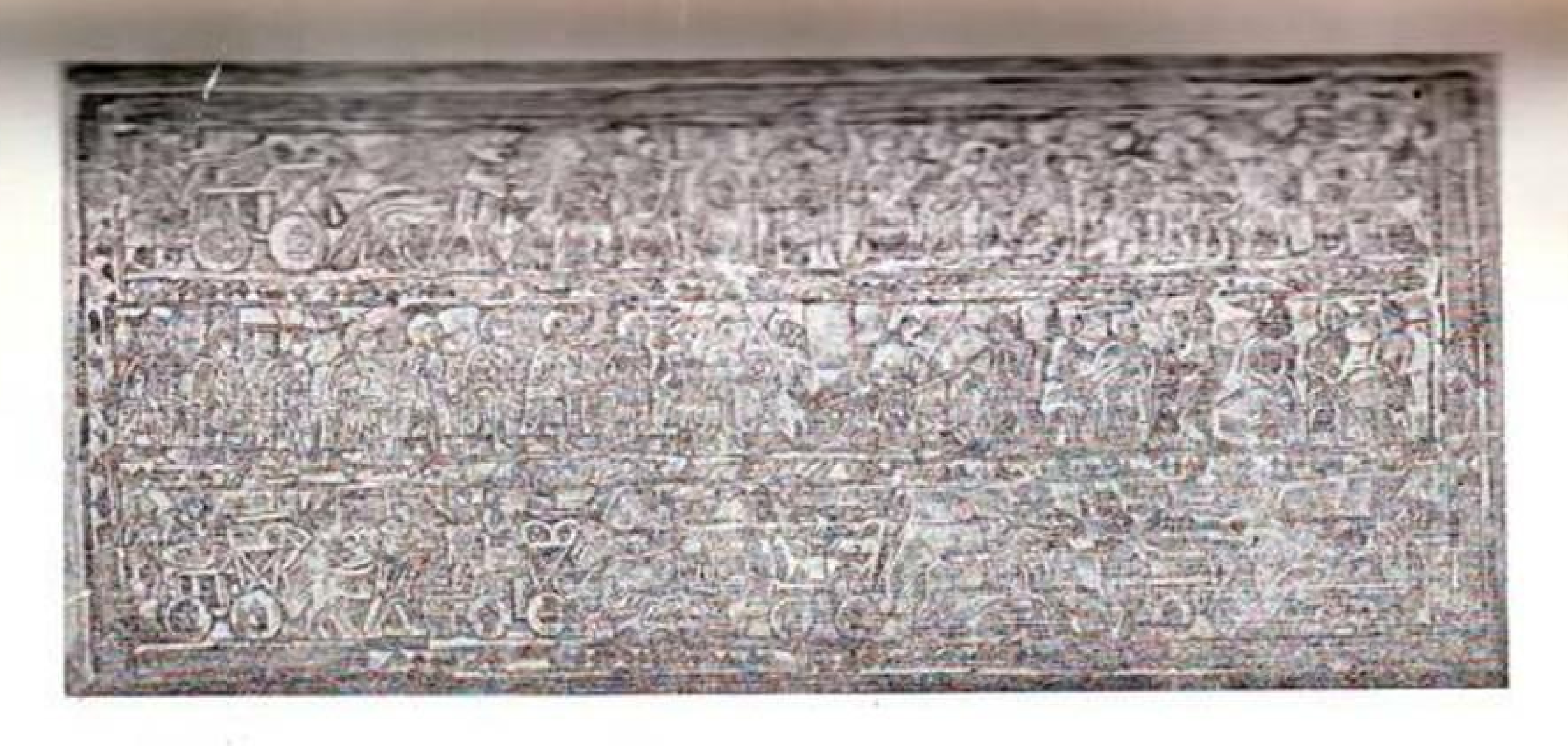
بمفتخر بفتحه قناة ساعد السفن القادمة من الخليج على الوصول إلى مدينة أور، كما ساعد الناس على زراعة البصل والخضراوات الأخرى على ضفتيه. وعندما نلقى نظرة على الصحراء الواسعة التى تحيط اليوم بخرائب أور، يصعب علينا أن نتصور كيف أنها كانت فى عهد أورانكر حقولا للحبوب وحدائق ممتدة إلى منتهى ما يرى البصر.

وكان القائد العام للقوات الإمبراطورية هو المشرف على قوات الملك المسلحة. فهو الذى يتولى تنظيم حشد الجنود، كما يرأس هيئة يظهر لنا أنها تقرب مما ندعوه اليوم بالشرطة. ويدعو الجنود للمساهمة فى إنجاز المشاريع العامة الكبرى التى ينجز القسم الأعظم منها عمال مسخرون. أما فى ساحة الحرب فإن الملك هو الذى يتولى القيادة بنفسه باعتباره إله الحرب. ولم يكن هناك جنود من الفرسان لأن الخيول لم تكن معروفة فى وادى الرافدين حينذاك. وكان سلاح الجنود المشاة يتألف من القسى والمقاليع، ويحمل القسم الرئيسى منهم الفؤوس والرماح والهراوات أحيانا. وينظم للمشاة عند الاشتباك فى القتال بشكل كراديس، متلفعين بالخوذ الجلدية والدروع الثقيلة ومتنكبين الرماح الطويلة. وتصنع هذه الأسلحة من النحاس.

وتقتصر الصنوف العليا من الجيش ، والقوة الرئيسية للقتال ولا سيما الفرق المسلحة بالأسلحة الثقيلة ، على أبناء « العاميلو » أعلى طبقات المجتمع . بينما يقوم أبناء الطبقة الثانية « المسكينو » ببعض الخدمات فى المعسكرات ، وقد يؤلفون فى بعض الأحيان بعض الكتائب الخفيفة السلاح . أما العبيد فكانوا معفوين من الواجبات العسكرية عامة ، وقد يوهب بعض الجنود المسرحين قطعة أرض موقوفة . « لا يمكن بيعها أو رهنها » صالحة للزراعة ، ويعفون من أداء الضريبة عليها . إلا أن تملك مثل هذه الأرض يترتب عليه الالتزام بالعودة إلى الخدمة العسكرية ثانية عند الحاجة . وهذا النظام لا يختلف عن الإقطاعيات التى كانت تمنح للفرسان فى أوربا فى العصور الوسطى .

أما الجنود الذين يقعون أسرى بيد العدو فعليهم افتداء أنفسهم ، فإذا لم تسعفهم حالتهم المالية تولى المعبد المحلى افتداءهم ، فإن لم يتوفر المال اللازم فى خزينة المعبد كان على الحكومة أن تقوم بتدبير ذلك المال .

وكان فى قصر الملك بالإضافة إلى رئيس الجيش عدد كبير من الموظفين . ويمارس بعض هؤلاء أعمالهم فى القصر نفسه ، مثل رئيس الحجاب ، ومدير الأملاك الملكية ورئيس الحرم والكتبة



(شكل ١٤)

لوحة تمثل منظراً حربياً : (فى الأعلى) الملك ينزل من عجلته . (فى الوسط) جنود مسلحون بأسلحة ثقيلة فى اليسار ، وآخرون مسلحون بأسلحة خفيفة فى اليمين . (فى الأسفل) عربة ذات أربع عجلات تجرها أربعة حمير نحو عدو منهزم

والصيادين والأكارين وعمال الصناعات المختلفة . بينما يقوم البعض الآخر منهم بواجباته خارج القصر ، كالمفتشين الجوالين والقضاة ومراقبي شؤون الري والمهندسين المعماريين ، وموظفي بيت المال وخزنة السجلات وكتابها . وكانت توجد مثل هذه الوظائف تماماً فى المعابد الكبيرة عادة ، إذ أن إدارة بيت الإله تنظم وفق الأسس التى تقوم عليها إدارة قصر الملك .

السكان المدنيون

لو ألقينا نظرة على مؤسسات الحياة المادية التى كانت تنظمها الدولة حينذاك ، لوجدنا حياة الناس الاجتماعية مدنية فى أكثر مظاهرها ، بالرغم من أن حياة البلاد الاقتصادية تقوم بالضرورة على الزراعة ولوجدنا أنظمة الحكومة تمثل مجتمعاً من سكان المدن بالدرجة الأولى . إذ أن الفلاح الذى يعمل فى الريف كان لا يزال يسكن كوخاً من القصب والطين ، أو خيمة من الشعر — كما يفعل أحفاده اليوم — ولكن عمله يتركز فى المدينة . حتى أن كبار ملاك الأراضى كانت لهم بيوتهم فى المدينة بالإضافة إلى ممتلكاتهم فى الريف . كما أن مستوى الحياة فى المدينة كان قد تقدم كثيراً على مستوى حياة الريف .

وفى بلاد رسوبية خالية من الصخور كوادى الرافدين ، تقتصر مادة البناء على الآجر سواء كان مفخوراً أو غير مفخور « الطابوق واللبن » إلا أن المعماريين السومريين استطاعوا أن يشيدوا بهذا الآجر مبانى لا تقل فى روعتها ودوامها عن بنايات المعابد المصرية المشيدة من الصخور . على أنهم استعاضوا عن التزيينات والزخارف الخارجية التى تلاحظ فى المعابد المصرية ، بمراعاة انسجام أبعاد البناء وجماله ومتانته . كما كانوا يكسون الجدران الداخلية للبيوت بطبقة من الملاط « الجص » . أما جدران المعابد فكانت تزين بالأفاريز الخشبية أو بنقوش الفسيفساء من الذهب والفضة أو الأحجار الكريمة كالزمرد والفيروز والمرجان . ومع أن هذه الثروة قد اندثرت كلها منذ أمد بعيد ، إلا أننا نستطيع من ملاحظة بقايا الجدران الماثلة فى أطلال « أور » أن نكون فكرة عامة عن المدينة كما كانت فى أوج عزها .

كانت بنايات المدينة « أور » تتناثر فى مساحة واسعة جداً يبلغ طولها أربعة أميال وعرضها ميلا ونصف ميل تقريباً ، ويشغل القسم الأكبر من هذه المساحة ضواحى المدينة المنتشرة خارجها ، أما المدينة نفسها فتشغل مساحة يزيد طولها على نصف ميل تقريباً ،

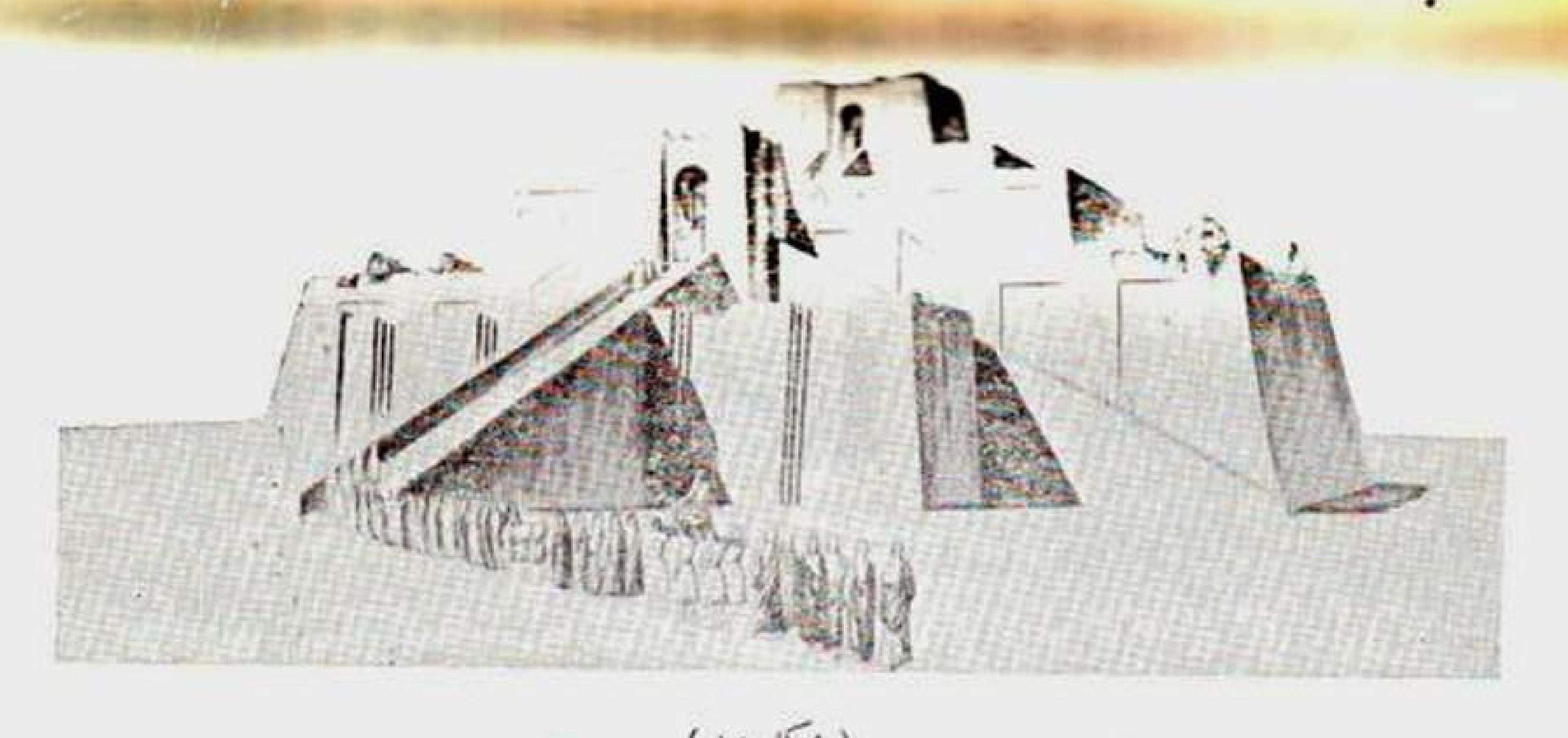
ويبلغ عرضها ربع ميل . وهى محاطة بسور متين من الآجر أقامه « أور انكور » عام ٢٤٠٠ ق . م . وفى داخل المدينة سياج مربع آخر حول مساحة يبلغ طولها (٤٠٠) ياردة وعرضها (٢٠٠) ياردة ، هى حرم المدينة أو البقعة المقدسة فيها ، حيث تقوم كل المعابد الرئيسية التى كان معظمها موقوفا على الإله « نانار » إله القمر وحامى المدينة .

الزيكورات

وعلى قاعدة مرتفعة فى الزاوية الغربية لهـذا الحرم يقوم
« الزيكورات » أو البرج المدّرج ، وهو أعظم مبانى المدينة
ارتفاعا ، ويعلوه المزار المركزى لإله القمر .

وكانت كل مدينة سومرية تفتخر بمثل هذا البرج الذى تشيده
إكراماً لإلهها المحلى ، وأعظم هذه الأبراج وأشهرها برج الإله
مردوك فى بابل ، الذى انحدر إلينا بشكل قصة « برج بابل » .
ولم يبق من هذا البرج شىء اليوم ، إلا أن برج أور الذى شيد
على نفس النمط لا تزال أطلاله ماثلة ، وفى وصفه غنية لنا عن وصف
الأبراج الأخرى .

ويظهر أن سبب تشييد الزيكورات هو أن السومريين شعب



(شكل ١٥)

تخيل « الزيكورات » التي شيدها (أورنامو) أحد ملوك الأسرة الثالثة وهو من تصميم مديرية الآثار العامة

جبلى الأصل ، وأن آلهتهم جبلية اعتادت سكنى « الأماكن المرتفعة » واتخاذ هياكلها فوق « كل تل عالٍ » ولابد أنهم عندما استوطنوا سهول الفرات الرسوبية المنبسطة أسفوا لخلوها من الأماكن المرتفعة المناسبة لعبادة آلهتهم كما جرت عادتهم بذلك ، فأقاموا التلول الصناعية ملافاة لهذا النقص الطبيعى ، كما كانت الحاجة الواقعية تدفعهم إلى تشييد كل بناء على قاعدة مرتفعة لتقيه أخطار الفيضانات الدورية .

ومع أن الأرض داخل سور المدينة أعلى من مستوى السهل الزراعى المحيط بها ، فقد شيد كل معبد فى ساحة الحرم على قاعدة خاصة . إلا أن الزيكورات كان يختلف عن ذلك ، فهو كتلة ضخمة من البناء بالطابوق ، وقد بنى داخله من اللبن أما أوجهه الخارجية فكانت من الآجر المبنى بالقار ، وله قاعدة يزيد طولها على (٢٠٠) قدم ويبلغ عرضها (١٥٠) قدماً ، وهو مشيد بشكل سطوح مدرجة « مساطب » تأخذ فى الضيق كلما علا البرج حتى يبلغ ارتفاعه سبعين قدما ، وفى أعلى هذه القاعدة الكبيرة شيد المزار المركزى لإله القمر .

وكان فى الجهة الشمالية الشرقية من البرج ثلاثة سلالم عريضة من الآجر ، يمتد أحدها أمام واجهة البرج ويقابل الآخران جدرانه ويلتقيان فى السطح الثانى بمدخل يؤدى إلى فسحة جميلة كانت

تقام فيها الطقوس الدينية فى أيام أعياد الآلهة ، وتشكل الأعمدة التى تحمل سقف المزار ما يشبه التاج بالنسبة للبناء ، وهذا المنظر مدهش يخلب الألباب إلى حد بعيد . ولذا فلا نعجب إذا ما رأينا فى العصور التالية قصصاً عن « جبل الإله » أو « تل السماء » وجدها أساطير أناس من عنصر آخر تسنى لأجدادهم أن يعيشوا يوماً ما فى ظلال هذه المعابد ، وأن يشاهدوا كهنتها يخطرون فى صعودهم ونزولهم سلالم هذا البرج .

واردات الآلهة

تمتد عند قاعة الزيكورات ساحة واسعة تحيط بها غرف خزن عديدة ويمر مدخلها الرئيسي تحت بناء ذي طابقين يسكنه موظفو المعبد ويمارسون أعمالهم فيه . ومن المرجح أنه كان المحل الذي يقدم فيه الناس ما عليهم للمعبد . إذ كان الإله ملاكا كبيراً ، ولما لم تكن النقود معروفة حينذاك فقد كان مستأجرو أملاكه يدفعون بدلات إيجارها ، وما عليهم من أعشار ، مواداً عينية . ولذا كانت الحاجة ماسة إلى غرف لخزن هذه المواد . إذ أن للمزارع يأتي بالحبوب والزيت والسمن والجبن والجلود والصوف والكتان ، أما ابن المدينة فيقدم ما يتفق وعمله من البضائع والمواد كالذهب والنحاس والملابس وغير ذلك .

وكان بالقرب من المعبد رصيف يقع على رأس قناة خاصة تدخل فيها السفن القادمة من الأماكن النائية محملة بالأخشاب والصخور والذهب والنحاس الخام والأحجار الكريمة والبخور وغيرها مما يقدم إلى المعبد نذوراً وهدايا ، وكل هذه المواد توزن وتسجل ثم تخزن ، لذا كانت الحاجة ماسة إلى عدد كبير من الخزنة والكتبة للقيام بما يتطلبه ذلك العمل ، لأن كل شيء يستلم لقاء إيصال مكتوب على لوحة طينية وتحفظ منه نسخة فى سجلات المعبد .

ونستطيع أن نقدر كثرة الحركة وشدة الزحام إذا ما تصورنا دخول الحمير المحملة إلى الساحة ، وعملية تفريغ الأكياس والجرار واستلام ما فيها ، وما يصحب ذلك من الضوضاء الناشئة عن صراخ الناس وتدافعهم وعن إعلان الكتبة الأسماء ، وأوزان المواد ، وإسراع الخدم بإحضار ألواح الطين الطرية للكتابة عليها ، وحركة الشهود الذين يصدقون بأختامهم على ما يسجله الكتّاب .

وتقع هذه الساحة فى نهاية البقعة المقدسة ، وخلفها المعابد الرئيسية حيث يقوم معبد إله القمر فى جهة من الزيكورات ويقابله معبد زوجته « ننكال — Nin-Gal » من الجهة الأخرى ، ثم يأتى بعد ذلك المزار المشترك بين المعبدين « الحرم » ، ولم يكن هذا التصميم فى البناء ناتجا عن خطة موضوعة لذلك ، ويشتمل هذا

الحرم على خمس غرف صغيرة تحيط بها المخازن وغرف الخدم .

يتكون معبد نانار إله القمر من مزار صغير وغرف جانبية تؤدى أبوابها إلى ساحة مركزية . أما معبد إلهة القمر ننكال فكان أكثر تزييناً وهو يشبه القلعة بجدرانه الخارجية السميكة وأبراجه المحصنة ، ويحتوى على معبدين منفصلين وعدة مزارات صغيرة ويشبه أحد هذين المعبدين فى تصميمه الهيكل الذى بناه سليمان فيما بعد فى أورشليم ، إذ فيه ساحتان إحداهما داخلية والأخرى خارجية ، وبينهما ممر مقدس يفضى إلى قدس الأقداس ، وتقع حول الساحتين أو بينهما غرف الكهنة والخدم والغرف الخاصة بالغسيل وتقديم البخور ، أما المعبد الآخر فيختلف عن ذلك تماما ، إذ يبدأ من الساحة المركزية عدد من الممرات الكبرى تؤدى إلى الهيكل مباشرة ، ويقع خلف ذلك مطبخ المعبد ، حيث تطهى الضحايا ، وأفران الخبز ، ومحلات تسخين المياه ، ومناضد حجرية لتقطيع الذبائح .

وكان يجاور هذين المعبدين معبد الإله « دُبلال ماخ Dublal Makh » وهو يختلف عنهما بكونه يتألف من غرفتين صغيرتين تواجهان مساحة واسعة تحيط بها غرف لحفظ سجلات المعبد ، كما تجرى فيها مختلف المعاملات التجارية .

الأديرة السومرية

والحقيقة أن حرم نانار المقدس لم يكن معبداً بالمعنى المألوف للكلمة ، إذ أنه شبيه بأديرة العصور الوسطى التى كانت تضم إلى جانب الكنيسة الرئيسية والكنائس الصغيرة الأخرى الملحقة بها ، مبانى ذات صبغة دنيوية تحتل مساحة واسعة ، كغرف النوم ومحلات الخزن وقاعات الطعام ، والمصانع ، والمكتبات . فكان المعبد السومرى ، كما رأينا ، يحتوى على غرف للكهنة وخدم المعبد والفتيات اللواتى وقفن أنفسهن على خدمة الإله . كما كانت هناك غرف خاصة للأطفال الذين يتلقون تعليمهم فى المعبد .

أضف إلى ذلك أن مستأجرى أملاك الإله كانوا يأتون إلى رحبة المعبد بالقرابين والمواد العينية لقاء ما عليهم من بدلات الإيجار .

على أن هذه المواد لم تكن لتخزن وحسب ، وإنما تتناولها الأيدى لتحولها إلى بضائع مصنوعة ، فتنصرف النساء العاملات فى المعبد إلى غزل الصوف ونسجه . كما ينصرف الصناع إلى صهر النحاس لعمل الأوانى . أما المعادن النفيسة والأحجار الكريمة فتصنع منها التماثيل وتزين بها المزارات . وكل هؤلاء الذين يعملون فى المعبد من رجال ونساء ، يطعمون فيه ويكسون على نفقته مثل رجال الدين . وهذا يدل ولا شك ، على أن العمل فى المعبد كان أوسع من النطاق الدينى ، وأن كل شىء يعمل بدقة ونظام .

وقد عثرنا على ألوف من الألواح الخاصة بمخازن المعابد ، ويستدل منها على أن أى نوع من المواد يؤخذ من المعبد كان يسجل أيضاً بقائمة تحتوى على أسماء الأشخاص وأنواع المواد وكمياتها وبيان سبب إخراجها والجهة التى أمرت بذلك ، كما تحتوى على توقيع الطرفين والشهود . ويعود بعض هذه الألواح للمصانع الموجودة فى داخل المعبد نفسه ، أو التى تشتغل لحسابه فى الخارج . وهى تحتوى على قوائم بأسماء النساء المستخدمات فعاملات النسيج مثلاً تبين أمام أسمائهن كميات الصوف الخام التى تعطى لهن لمدة شهر — مع إضافة كمية منه تعويضاً لما قد يتلف منه فى أثناء العمل — ثم بيان مقدار ما تنسجه كل منهن بحسب وزنه ونوعه . وتذكر فى أعمدة متوازية لتلك مختلف المواد الغذائية من الخبز والجبن

واللحم وغير ذلك ، التى كان يزوّد بها كل صانع . وهذا مما يصور لنا تكاليف الإنتاج حينذاك .

إن هذا يساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن أساليب العمل عند السومريين القدامى ، ولم تكن هذه الأساليب مقتصرة على المعابد وحدها بل كانت سائدة فى كل حقل من حقول الحياة خارجها أيضاً . فلا تعتبر أية صفقة تجارية أو أية عملية من أعمال البيع والإيجار والنقل ، قانونية ما لم تسجل كتابة ، وكذلك الأمر فى عقود الزواج والمشاركة ومقاولات البناء وأحكام المحاكم وغيرها من أمور الحياة اليومية ؛ إذ كانت تدون كلها . وفى كل قضية قانونية يستشهد بالألواح المسجلة ، ولا يمكن إقامة الدعوى بدون هذه البينة ، إلا أنه عند فقدان الأدلة الكتابية يكتفى أحياناً باليمين باسم الآلهة والملك ، وكان المعتاد أن تسجل صور من هذه الألواح فى سجلات المعبد زيادة فى ضمانها ، وتحفظ على الأغلب ، فى ظروف من الطين تكتب عليها محتويات اللوح ، ليسهل رجوع ذوى المصالح إليها عند الحاجة .

ومن السهولة أن تدرك بعد هذا أهمية طبقة الكتاب وكثرة عددهم . ولارتباط واجبات هؤلاء الكتاب بالمعابد ارتباطاً وثيقاً ، فقد كانوا يتلقون تعليمهم وتدريبهم فيها . إذ كانت فى المعابد مدارس نظامية يتعلم فيها الأولاد فن الخط . وغالباً ما يُعثر

(فى أثناء الحفريات) على بعض القواميس وكتب التهجئة التى استعملوها . بل وقد يعثر على بعض الكراريس من الألواح الطينية ، وعلى أحد وجهيها كتابة المعلم النموذجية ، ومحاولة الصبيان تقليدها على الوجه الآخر . ومن المواضيع الأخرى التى كانوا يدرسونها الحساب ، وأعداده الأساسية الستة والعشرة ، ثم المتواليات الحسابية والهندسية واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية ، كما كانوا يدرسون الهندسة للاستفادة منها فى مسح الأراضى ، والفلك لمعرفة التقويم . وإذا ما أكمل الطالب تعليمه فإنه يصبح كاهناً أو أحد موظفى الحكومة .

طراز البيوت

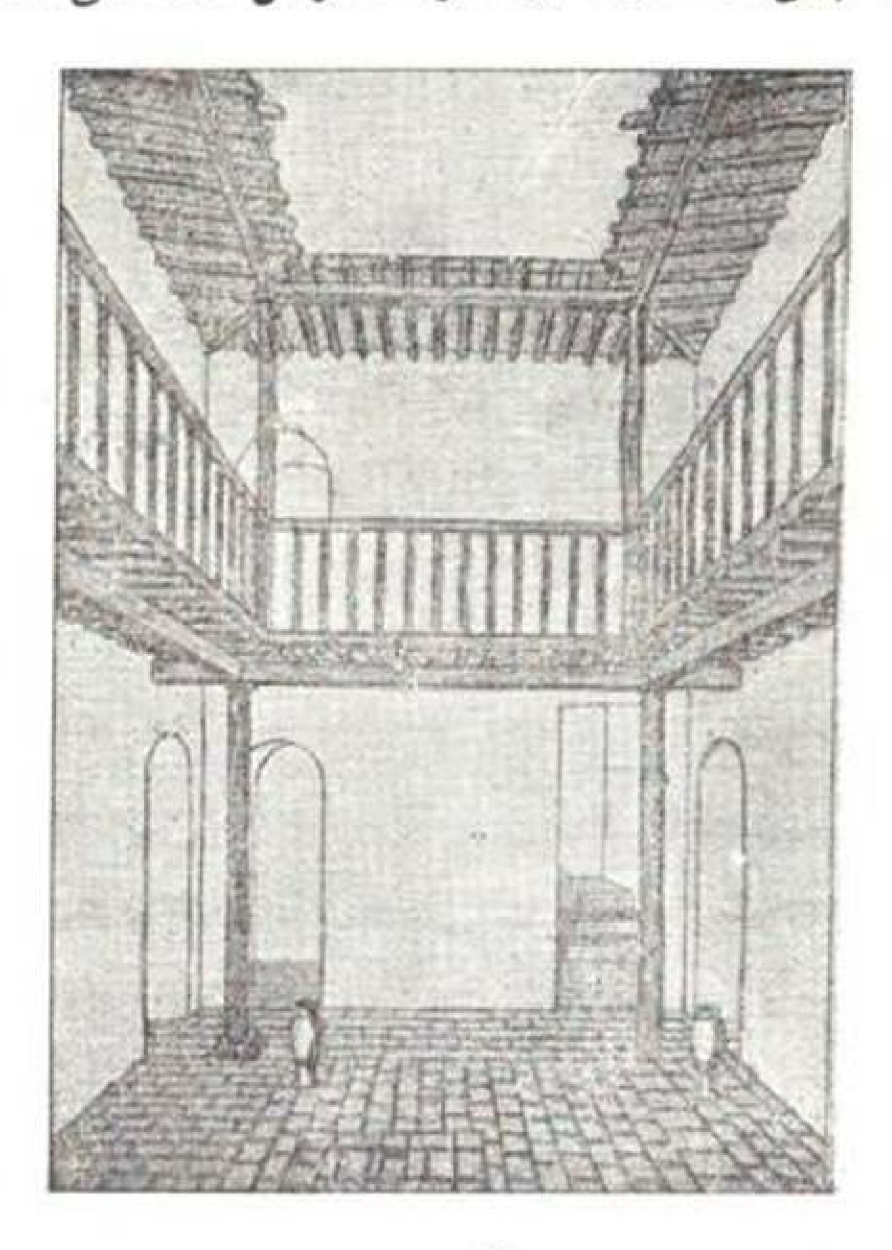
كانت البنايات الدينية الضخمة التى تضم كثيراً من الفاعليات المتنوعة ، تشغل مساحات كبيرة داخل ساحة الحرم المنيعة ، وتشيد بقاعات واسعة وفناءات مكشوفة ، وبجدران وسطوح سميكة ، تتوجها الزيكورات المرتفعة . وتنتشر بيوت المدينة خارج سور الحرم ، إلا أن تصاميمها تختلف عن ذلك كل الاختلاف ويبدو لنا أنه كانت ثمة محاولة بسيطة لتخطيط المدن . إذ كان هناك عدد قليل من الشوارع الواسعة المستقيمة تمتد بين أبواب المدينة وساحة الحرم بينما الشوارع الأخرى لا تعدو أن تكون دروباً ضيقة ملتوية ، تمر بين الجدران العديمة النوافذ ، ومداخل البيوت المتراصة بغير نظام . وكانت الأركان البارزة للجدران تبنى بشكل

مستدير ليسهل المرور حيالها . إلا أن معظم الشوارع لم تكن مبلطة أو معبدة ، فتكثر فيها الأوحال فى مواسم الأمطار . ومن المرجح أن من كانت عنده دابة لم يكن يفضل السير فيها مشياً على الأقدام .

وظهر حوالى سنة (٢٠٠٠) ق . م . طراز من البيوت الخاصة بالطبقة المتوسطة تكاد تشبه بمرافقها بعض بيوت بغداد الحديثة . إذ يلى الباب دهليز قصير يوصل إلى فناء الدار المركزى الذى يؤدى إلى غرف الطابق الأسفل . وثمة سلم يوصل إلى الطابق العلوى وتحته مرحاض صغير . ويقابل مدخل الدار غرفة الاستقبال التى يؤخذ إليها الضيوف . وفى إحدى جهتى الدار مطبخ بمواقده الطينية ، وتوجد إلى جانبه أحياناً غرفة أو غرفتان للخدم . وفى الطابق الأسفل من بعض الدور معبد خاص ، وهو عبارة عن غرفة طويلة ضيقة يتوسطها مصلى ومحراب ، وتحت بلاطها قبو خاص يدفن فيه موتى العائلة . وتقوم حول الفناء بعض الأعمدة المرتفعة تستند عليها شرفة خشبية تدور حول البيت من الداخل . وكانت أفاريز سطح البيت طويلة تغطى الشرفة ، فلا تترك سوى فتحة مربعة فى سقف الفناء لمرور الهواء والنور إليه . وتسلط مياه السطح بميازيب نحو منتصف ساحة البيت . ويوصل السلم إلى الشرفة التى أشرنا إليها والتى تؤدى إلى جميع غرف الطابق العلوى ، وهذه

الغرف مشيدة على نمط غرف الطابق الأسفل تماما . ونرجح أن سكان الدار كانوا يشغلون هذه الغرف لمنامهم .

من الطبيعي أن تكون دور الفقراء أصغر من ذلك . فهي تتألف



(شكل ١٦)
تخيل واجهة بيت سومري

من طابق واحد على الأغلب ، بينما يتباهى مواطنوهم الأغنياء بدورهم ذات الفنائين اللذين تحيط بكل منهما صفوف من الغرف .

وكان القسم الأسفل من الجدران يبنى من الآجر ، بينما يشيد قسمها الأعلى من اللبن . ويتوقف الجزء المبنى من الآجر على مبلغ ثروة مالك البيت . وهى تبنى بالطين دائماً وتبيض الجدران عادة . وتطلى زخارف الأبواب والنوافذ باللونين الأحمر والأسود رغبة فى جلب الأنظار إليها . وتبلط أرض الغرف ، وأحسنها على الأقل بالطابوق .

وجرت العادة منذ سنة ٣٠٠٠ ق . م . أن تعقد مداخل الدور بالآجر . أما الأبواب نفسها فكانت تصنع من الخشب وتدور بعضادة طويلة تغرس فى الأرض وينتهى طرفها الأسفل بقطعة من المعدن مستقرة على حجر مثقوب .

وكانت النوافذ فى الطابق الأسفل قليلة جداً بصورة عامة . وإذا ما وجدت فإنها لا تطل على الشارع وإنما على ساحة الدار . والظاهر أن الرغبة فى العزلة كانت قوية فى الشرق القديم كقوتها اليوم فى الشرق الحديث . ولعدم وجود النوافذ فى الطابق الأسفل فإن الغرف تستمد النور والهواء من أبوابها العالية . وهذا التصميم مناسب لبلاد ما بين النهرين لشمسها الساطعة وحرارتها



(شكل ١٧)
صنارة باب

الشديدة فى الصيف . وتعمل أبواب النوافذ من الخشب والحصر وتطلى بالقار ، كى لا يجد الماء فيها مجالا للنفوذ إلى الداخل . وكانت السطوح مستوية ، وهى تعمل من جذوع النخل بعد أن

يوضع فوقها القصب والحصر ثم تكسى بطبقة من الطين . وهى شبيهة بالسقوف التى تشاهد اليوم فى دور ما بين النهرين . وتمتاز بأنها تحفظ البيت من التأثر بحرارة الشمس المحرقة صيفاً ، وتجعله بمنجاة من مياه الأمطار شتاء .

وشاع استعمال العقود بالآجر فى بناء القبور ، ويظهر أنها لم تكن تستعمل فى بيوت السكنى ، إلا أن هناك احتمالا قوياً بأنها كانت تعقد فى معابد الآلهة لتزيينها .

الأدوات البيتية

كان السومريون يفرشون الأرض بالحصر ، وهى تشبه النوع الذى يستعمل اليوم تماماً . أما بيوت الأغنياء فتفرش بالطنافس والسجاد . وقد استعملوا الكراسى ذات المتكأ الخشبى والمقاعد المحشوة ، وكان لقوائم بعضها عجلات من الفضة أو النحاس ، وكانوا ينامون على سرر خشبية بعد أن يضعوا عليها الحشايا الوثيرة ، ويحفظون ملابسهم فى دواليب خشبية أيضاً . وشاع عندهم استعمال مناضد واطئة مثلثة الشكل ، مما يتمم أثاث غرفهم البسيط . أما للإضاءة ليلا فقد استعملوا مصابيح بدائية (مسارج) تتكون من أوان مسطحة تقوم فى وسطها فتائل صغيرة طافية على الزيت .

أما الماء فكان عليهم أن يجلبوه من آبار عامة خارج البيوت ،

بينما لكل دار فى الغالب بالوعة خاصة بها ، تتكون من أنابيب فخارية مثقبة ، توصل ببعضها بالقار ، وتنزل عمودية فى الأرض إلى عمق كبير ، وتوضع حولها كِسَرٌ صغيرة من الفخار تساعد على تسرب المياه إلى الأرض المجاورة . وكانت فوهاتها تشبه فى بعض الأحيان فم البوق وإن كانت فى أكثر الأحيان على نمط مجارينا الحالية .

وكانت أكثر الأوانى البيتية من الفخار . ومع أن أشكال هذه الأوانى تتنوع تبعاً لاختلاف استعمالها ، فإنه يظهر لنا من ملاحظة عادات العرب فى العصر الحديث أن هذه الفروق الطفيفة بينها لم يكن لها تأثير عند الاستعمال إذا كانت كلها مسلحة على الإطلاق. وقد اندثر الفخار الملون الذى يعود إلى عهد ما قبل التاريخ منذ أمد بعيد . وأصبحت العجلة تستخدم فى صنع أنواعه المختلفة ، إلا بعض الجرار والأوانى الكبيرة . ولم تكن العرا معروفة ، إلا أن لبعض الأوانى ذات أشكال خاصة أغطية من الفخار ، كما كان يجعل لجرار المؤونة سدادات من الخشب ، أو تغطى فوهاتها بقطعة من القماش ثم تطلى بالطين ويبصم عليها بختم صاحبها .

ويوجد فى البيوت الغنية قليل من الأوانى الصغيرة وكؤوس الشراب أو الجرار ، مصنوعة من الزجاج الأزرق البراق المحلى باللونين الأبيض والأصفر . على أن الأوانى المعدنية والحجرية كانت أكثر

شيوعاً . أما الجفنات التى تستعمل فى الأحوال الاعتيادية فتصنع من النحاس أو الكلس أو من حجر الديورايت أو الصدف . ونرى أدوات الزينة تستعمل فى هذه البيوت على نطاق واسع . إذ نجد أوانى جميلة الشكل من الحجر الخفاف أو الكرانيت أو الرخام أو المرجان . ويزين بعضها نقوش تمثل رسوماً آدمية وحيوانية أو صور بعض أدوات القتال .

وكان المعتاد أن تطعم هذه النقوش بالصدف والزمرد ، إلا أن الكأس الفضية للملك « أنتيمينا » نقشت بصور النسور الملكية والأسود والوعول والماعز . وهذه الكأس محفوظة الآن فى متحف اللوفر بباريس ، وترى صورتها فى الصفحة المقابلة . وهى تصور لنا ما كان يزين منضدة الملك من نفائس فن الصياغة آنذاك .



(شكل ١٨)
كأس فضية نفيسة للملك (أنتيمينا) ٢٩٥٠ ق . م .

دفنُ الموَتى

جرت العادة بأن يدفن الميت تحت أرض الدار التى عاش فيها ، سواء فى القبو الخاص بذلك ، أو تحت أرض إحدى الغرف إن لم يكن فى الدار قبو لدفن الموتى . فيرفع تبليط الغرفة وتحفر فى وسطها حفرة ، وبعد أن تنتهى مراسيم الدفن يعاد تبليطها ويستأنف استعمالها . وقد تبدو لنا هذه العادة غريبة أول الأمر ، إلا أنها لا تختلف عما كان شائعاً فى انكلترا من عادة دفن الموتى تحت أرض الكنيسة حتى عهد قريب .

وكان هناك نوعان من القبور ، أحدهما تابوت من الطين حوضى الشكل ، والآخر قبو معقود بالآجر . ويدفن الميت مرتدياً ملابسه الاعتيادية ، بعد أن يلف بحصيرة أو بقطعة من الكتان . ويوضع

على جانبه فوق حصيرة وتحت رأسه وسادة مزركشة ، وركبتاه معكوفتان . أما ذراعاه فترفعان إلى الأعلى بحيث تكون يداه أمام وجهه ـ وهذا نفس الوضع الجنيني الذي رأيناه في مقابر تل العُبَيد ويوضع بين يديه إناء صغير أو جرة للماء . كما توضع بالقرب منه بعض أمتعته الشخصية الصغيرة مما قد يحتاجه في الحياة الأخرى ، كالخنجر وموسى الحلاقة إذا كان من الرجال ، أو القلادة والأسورة إذا كان من النساء . فإذا ما قلب التابوت الطيني فوق جدثه ، أو بنيت باب القبر بالحجارة ، وضعت خارج ذلك أطباق الطعام وأواني الشراب ، ثم أهيل التراب فوق ذلك جميعاً .

إن القبور المعقودة بالآجر كانت أقباء خاصة بالعائلات ، ويعاد استعمالها باستمرار . فقد عثرنا على ما يقرب من عشرة هياكل عظمية في قبر واحد . ولما كانت هذه القبور تحت أرض الغرف مباشرة فإنها لم تكن صحية . والحقيقة أن سعة امتداد أطلال المدن القديمة تعود إلى حد غير قليل إلى هذه العادة . لأن الدار ، أو الحي بكامله أحياناً ، تصبح بعد مدة غير صالحة للسكنى فيضطر ساكنوها على هجرها ، ولا يرجعون إليها إلا بعد أن تعود ساحة المقبرة صحية بتأثير الشمس والهواء .

اللباس وأدوات الزينة

كان الرجال فى العهود الأولى يتدثرون بجلود الماشية ويربطونها تحت الإبطين تاركين صوفها إلى الخارج بعد أن يبرموه بشكل خيوط متدلية . وقد استمر هذا النوع من اللباس وأصبح الرداء التقليدى الخاص بالاحتفالات ، إلا أنه صار يتخذ من النسيج . وأخيراً تطور هذا اللباس فأصبح أحسن تنظيما ، إذ أخذ الرجال من الطبقة العليا يلبسون قيصاً فوقه عباءة طويلة ذات أكمام مزركشة الحواشى . ويرتدى الرجل من الطبقة العاملة ثوباً قصيراً ويشد فوق خصره نطاقاً . وكان الفقراء من الناس يعتمرون بطاقية منسوجة ، أما الأغنياء فيرتدون عمامة أو ما يشبه الكوفية والعقال التى يرتديها بعض العرب اليوم .

ويمتاز الملك بأن يطلق لحيته ويعتنى بتمشيطها وتجعيدها متشبهاً بالآلهة كما تظهر فى تماثيلها . ويترك شعره مسترسلا على



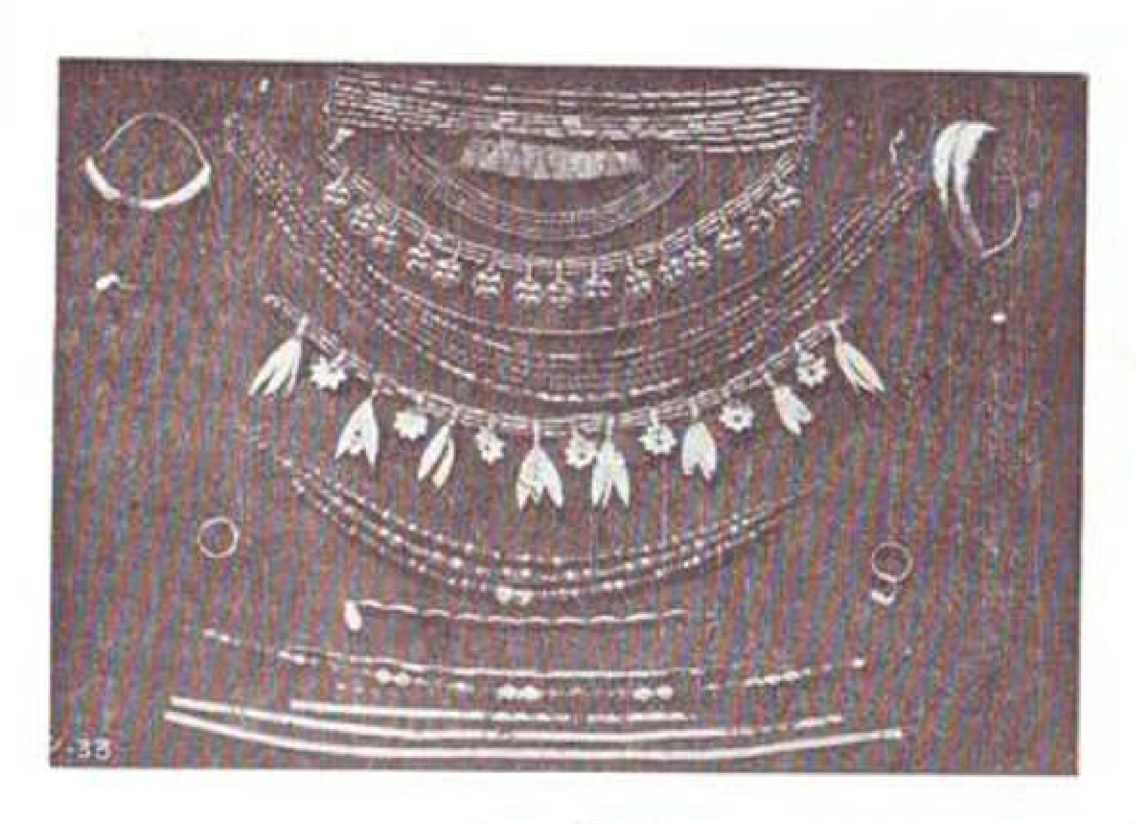
(شكل ١٩)
تمثال رجل يرتدى رداء صوفياً تتدلى خيوطه المبرومة

كتفيه . أما أبناء الطبقة الدنيا من المسكينو والعبيد فيتركون لحى طبيعية قصيرة ، ويعقصون شعورهم على هيئة كرة كبيرة خلف رؤوسهم . وكان الكهنة يحلقون رؤوسهم ولحـاهم للنظافة التى تتطلبها المراسيم الدينية .

وكانت النساء فى الفترة الأولى يرتدين قطعتين من الثياب تتألفان من قميص داخلى طويل ، ومعطف ذى أكمام طويلة يتدلى إلى الأرض ويثبت على الكتفين بدبوس نحاسى . وقد استمر هذا الطراز من اللباس عهداً طويلا . أما فى الحفلات فقد كن يلبسن لباساً كاملا ذا أكمام طويلة ، وتنورة فضفاضة ذات حواش مزركشة . ويكاد هذا يشبه الطراز الذى شاع فى أوائل عهد الملكة فكتوريا فى انكلترا .

وكن يعتنين بتنظيم تسريح شعورهن ، فيجعدنه من الأمام بحيث يكون متموجاً فوق الجبهة ويتركن بعض ذوائبه تتدلى أمام الأكتاف . ويضعن على رؤوسهن نوعاً من العصابة تتكون من حلقة من القماش المبروم أو من المعدن أحياناً . أما الشعر الخلفى فكن يتركنه خصلا مسترسلة على ظهورهن ، أو يكوِّرنه على حلقة العصابة ليكوِّن ما يشبه العقال ، وتتدلى منه بعض الأهداب .

وإذا ما ظهرت المرأة فى محل عام فإنها تغطى وجهها بقناع .



(شكل ٢٠)

نماذج من الحلى الذى كانت تتزين به المرأة السومرية

وكانت ألوان للملابس الخارجية غامقة بصورة عامة وأكثر هذه الألوان شيوعاً القهوائى والأزرق والأسود ، أما الملابس الداخلية فبيضاء . ولا تكون الملابس كلها بيضاء إلا فى الأعياد . على أن هذا اللباس الوقور كان يختلف إلى حدٍّ ما بكثرة الحواشى الملونة التى تزين الأقنعة والمعاطف .

وتزين المرأة عنقها بأنواع القلائد والأطواق وتتدلى منها أنواع مختلفة من التمائم والتعاويذ . كما تلبس الأسورة فى معاصمها .

وتتخذ ذلك من الذهب والفضة والعقيق والزمرد والزجاج وغيرها من الأحجار الكريمة . وتستعمل الدبابيس لتثبيت الملابس ، وهى مزينة برؤوس من المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة . كما كانت الخلاخيل الذهبية والفضية معروفة وتلبس فى الأذرع والأقدام .

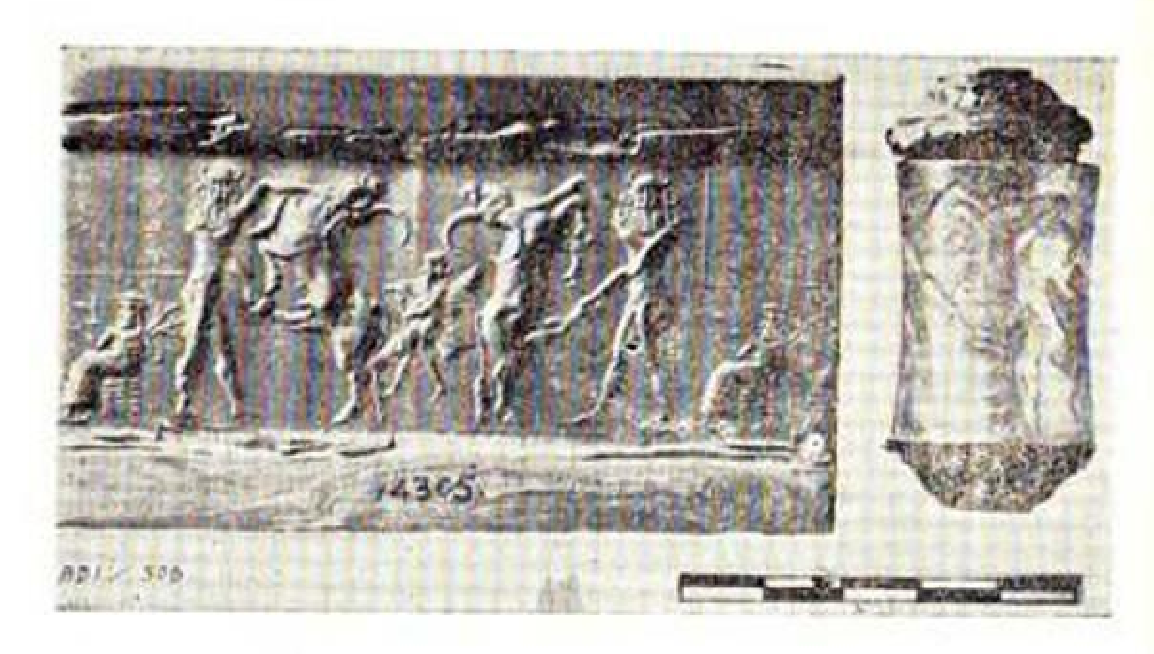
وينتعل الرجال والنساء أحذية أو نعالا جلدية إذا كانوا فى خارج البيت ، أما فى داخله فيمشون حفاة الأقدام .

الأختام الأسطوانية

كان لكل رجل سومرى من الأحرار ولكثير من النساء خاتم خاص . ولما كانت كل المعاملات المالية تسجل كتابة ، وأغلبية الشعب لا يستطيعون الكتابة فقد كان الخاتم أمراً لا مفر منه لتأييد الوثائق . وتعنى بصمته على اللوح الطينى توقيع صاحبه . وكان الخاتم فى عهد أسرة أور الثالثة عبارة عن أسطوانة يتراوح طولها بين ثلاثة أرباع البوصة والبوصة والنصف . وهو يعمل من الحجارة ويحفر عليه عادة منظر يظهر فيه صاحبه يقدمه إلهه الخاص أمام إله المدينة ، وقد يكتب اسمه وألقابه خلف صورة الإله .

إن نحت بعض هذه الأختام بالغ الإتقان جداً جعلها قطعاً فنية

مصغرة ، حتى إنها لتعتبر من الحلى . والحقيقة أنها كانت تنظم أحياناً مع غيرها من الأحجار الكريمة فتصبح جزءاً من القلادة . إلا أنها فى الغالب تنظم فى محور معدنى ليسهل دورانها عند استعمالها ، وتعلق مفردة بخيط حول الرقبة أو المعصم .



(شكل ٢١)

خاتم أسطوانى . عندما يبصم الخاتم الأسطوانى على لوحة ما يعتبر الأثر الذى يتركه على اللوحة توقيع صاحبه

الفنون والآداب

هناك ، فى الحقيقة ، كثير مما يدلنا على أن تنظيم المجتمع قد بلغ حينذاك حداً من الرقى والتقدم لم يبلغه إلا فى العصر الحديث ، ولذا فإن مظاهر الفن لم تكن مما يستهان به . فقد كان فن النحت فى عام « ٢٠٠٠ ق . م » قد مضى عليه تاريخ طويل ، بعد أن مر بدوره البدائى على عهد الأسرة الأولى ، كما يبدو لنا ذلك واضحاً فى آثار تل العُبيد وآثار عهد « أورنينا » تلك الآثار التى تساعدنا على متابعة تطوره التدريجى من طرازه الوطنى الذى قد يبدو لأول وهلة أنه أميل للبدائية ، بيد أنه فى حقيقته زاخر بالحيوية . وقد بلغ هذا التطور درجة الكمال فى عهد أسرة أور الثالثة الزاهر . إذ عثر فى أطلال أور على قطع فريدة من المنحوتات تفوق فى دقة



(شكل ٢٢)

رأس تمثال للإلهة « ننسكال » من المرمر وقد ثبتت له عينان من الصدف والحجر الأزرق ويعتبر تحفة فنية رائعة

صنعها تمثال « كـودا » حاكم لـكش ، الذى يعود إلى ما قبل ذلك بمائة سنة . ووجد تمثال من الصوان لأور انكور ، ورأس تمثال للإلهة « ننسكال » مصنوع من المرمر ، وآخر لها من حجر الديورايت ، وأجمل ما فيه شكل العيون إذ جعل بياضها من الصدف وحدقتها من الزمرد الأخضر . كما ترى فى الشكل المجاور . وهذه تدل ولا ريب على فن راقٍ فى النحت لا يقل فى نفاسته

وروعته عن أروع نفائس فن النحت فى مصر .

أما فى الفنون الأخرى فقد تقدم السومريون كثيراً فى هذا العهد . ومع أن ما وصلنا من الألواح المكتوبة يكاد أن يكون خالياً من الآثار الأدبية ، إذ أنها تحتوى على أحكام قضائية ورسائل شخصية وعقود تجارية وما شابه ذلك من معاملات الحياة اليومية ، فإن الشعب الذى ترك أمثال هذه الوثائق بهذه الدرجة من الكثرة ، لابد وأن كان له أدب خاص به . وباستطاعتنا أن نستنتج مما فى الألواح التى بين أيدينا أنه كان أدباً ذا طابع دينى .

وأهم ما وصل إلينا من آدابهم ، وأساطيرهم عن الخليقة والطوفان ، تلك الأساطير التى يظهر لنا أنها أصل ما جاء فى الإصحاحات الأولى من سفر التكوين فى التوراة . وقصة البطل « كلكاميش » وخرافة « أتانا » الذى حمله النسر إلى السماء . وكذلك بعض الأشعار عن الخير والشر كالتى نقرأها فى سفر يعقوب ، ويرجح أنها كانت ترتل فى المعابد . وبعض التراتيم الدينية والمراثى التى نظمت لتتلى فى المعابد . ثم بعض الأشعار عن المدن الكبيرة . كما أن بعض ما عثر عليه من سجلات للملوك كان مكتوباً بلغة شعرية ويبدو لنا أنه لم تكن هناك قافية للشعر ، بل تتألف القصيدة من مقطوعات يتكون كل منها من بيتين لهما وزن واحد ويعبران عن أفكار مترابطة . وهو بهذا



(شكل ٢٣)

تمثال الإلهة (بو) وهو من نفائس فن النحت السومرى

يماثل تركيب الشعر العبراني كما نلمسه في الترجمة الانكليزية لمزامير داود التي يمكننا مقارنتها بكثير من الترانيم السومرية في تركيبها وقافيتها .

والمفروض في هذه الترانيم أنها كانت تنشد مع الموسيقى التي لم يصلنا من نغماتها شيء . وإذا ما عثرنا على قسم من علاماتها في بعض الألواح فإننا لا نستطيع أن نفهمها بصورة صحيحة . على أننا نعرف أنهم استعملوا أنواعاً مختلفة من الآلات الموسيقية كالمزمار والبوق والقيثارة والطبل والصنج والعود والطار . كما كانت في المعابد حجرات منعزلة تتلقى فيها الفتيات فن الموسيقى على أيدي الكاهنات ليصبحن محترفات فيها .

وكذلك نرى في هذا العهد تقدماً كبيراً في الفنون الدقيقة . فإن عمل التماثيل الفخارية الصغيرة للآلهة ورعاياها وللأصنام التي جاء ذكرها في العهد القديم ، كان شائعاً في عهد الأسرة الثالثة . وبعض هذه التماثيل متقنة جداً ، وهي تمثل أشكالا مختلفة غير مقيدة بنموذج معين في صنعها ، مما لم نره بعد ذلك العهد . ومعظم هذه التماثيل ذو طابع ديني . إلا أن بعضها يمثل نماذج مصغرة للحيوانات الأليفة وللأواني البيتية والأثاث كالكراسي والمناضد وغيرها ، مما يجعلنا نميل إلى أنها كانت لعباً للأطفال ، فهي شديدة الشبه بهذه اللعب . لا سيما وأننا نعرف أن الأطفال كانوا يمارسون

الألعاب شأن أطفال اليوم فكانوا يلعبون لعبة الكعاب وغيرها . أما الكبار فكانوا يلعبون الداما ، وتعمل لوحتها من الفخار ، كما أنهم يمارسون لعبة أخرى شديدة الشبه بلعبة الثعلب والبطة ، وتلعب بالزار والحسبة . وكانوا يعرفون الرقص ويمارسون بعض الألعاب السحرية فى بعض مناسبات خاصة فى المعابد .

المرأة السومرية

لعل ما كان للمرأة من مركز عند السومريين أقوى دليل على أن حضارتهم لم يقتصر تقدمها على النواحي المادية وحسب ، وإنما شمل النواحي المعنوية أيضاً . وكانت الهدايا التى يتحتم على الزوج تقديمها إلى حميه قبل البناء بابنته قد نشأت مع نظام الزواج القائم على المقايضة ، ذلك النظام الذى اندثر منذ عهد بعيد . وبالرغم من أن الزوج يعتبر الرئيس الشرعى لعائلته ، وله بعض الحقوق على زوجته مما نستهجنه اليوم ، كأن يستطيع وضعها تحت تصرف دائنه لمدة أقصاها ثلاث سنوات ، كما يفعل ذلك بأولاده أيضاً ، فإن الزوجة لم تكن لتعتبر متاعا بيتياً ، كما اعتاد أن ينظر إليها المجتمع الشرقى فى أغلب العهود .

والأساس فى الزواج الاقتصار على زوجة واحدة ، إلا إذا كانت هذه الزوجة عاقراً ، فللزوج حينذاك أن يقترن بأخرى غيرها . ولكن الزوجة الأولى تحتفظ فى هذه الحالة بمقامها الأول فى البيت . كما يستطيع أن يطلقها بعد أن يدفع لها صداقها ومبلغاً من المال يتناسب وحالته المالية . أو أنها تقدم إليه إحدى إمائها لتكون سرية له — كما فعلت سارة حينما قدمت أمتها هاجر إلى زوجها إبراهيم — وهذه الأمة تصبح حرة عندما تلد . إلا أن باستطاعة سيدتها أن تعيدها إلى حالة العبودية إذا ما حاولت منافستها بأية وسيلة من الوسائل .

وكان الطلاق ميسوراً بالنسبة للرجل . إلا أنه إذا لم تكن المرأة قد اقترفت ما يوجب طلاقها فإنها تحتفظ بأطفالها وبصداقها كاملا ، وتأخذ من أموال زوجها بالإضافة إلى ذلك ، ما يكفى لتربية الأطفال حتى يبلغوا سن الرشد . وحينئذ تستطيع أن تتزوج إذا ما رغبت فى الزواج . أما إذا أهملها زوجها فإنها تعود إلى بيت أبويها مع كل ما تملكه . ولكنه إذا هجرها فإنها تسترجع حريتها وتستطيع أن تتزوج من تشاء .

وتعتبر الزوجة سيدة بيتها ، وما كانت تأتى به إلى بيت زوجها من الأثاث والمتاع يظل ملكا لها حتى وفاتها ، ومن ثمَّ ينتقل إلى أبنائها . وإذا لم يكن لها أبناء فيعود ذلك إلى أسرتها فقط دون زوجها . وكان للمرأة الحق فى البيع والشراء من غير أن تستأذن

زوجها . ولها أن تؤدى شهادة أمام المحاكم كما كان بمقدورها أن تحصل على إجازة فى الاشتغال بالمشروبات الروحية . وإذا ما تزوجت من عبد ، فإنها بالإضافة إلى احتفاظها بحريتها ، يولد أبناؤها أحراراً .

وكان المجال الدينى مفتوحاً أمام النساء . إذ بمقدورهن أن يحترفن مهنة للموسيقى فى المعابد وما شابهها ، أو يدخلن الأديرة ويوقفن أنفسهن على العبادة — وكانت رئاسة الدير [illegible] يليق بابنة الملك — كما كن يستطعن أن ينذرن أنفسهن [illegible] فيصبحن من فتيات المعبد ، ولم يكن ذلك شيئاً مشينا لأن [illegible] حية المرأة بجسدها ، وهو أعز ما تملك ، فى سبيل [illegible] ان لمثل هؤلاء الفتيات حقوق خاصة فى التملك ، و [illegible] أن يتزوجن بعد أن تنتهى المدة التى نذرن أنفسهن [illegible]

وبعد ، لقد بلغت الحـ[illegible] ة أوجها من التقدم والرقى على عهد أسرة أور الثالثة . [illegible] رها فى الناحية المادية أية حضارة تلتها حتى غزت [illegible] بية قارة آسية . وكذلك لم تتفوق عليها [illegible] الشرق الأدنى فى الناحية الاجتماعية . أما تقدمها فى الناحية [illegible] ية فقد كان قليلا نسبياً ، إذا ما قورن بالنواحى الأخرى . وكان التقدم فى هذه الناحية على أيدى قوم غرباء عن السومريين ، هم الساميون الذين تمت على أيديهم القوانين وظهر بينهم الأنبياء .

